

روايات مصرية للجيب

وداعاً للماضي



شريف شوقي

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ ش كامل صدقى بالفجالة - القاهرة - ت ٩٠٨٤٥٥

الجفاف ، فتشيع عبيرها الفوّاح فى ثنايانا ، وتعيد الخضرة إلى قلوبنا ، والربيع إلى كهولتنا ، والأمل إلى حنايانا .

إن الحبَّ بمعناه الكبير .. ومعناه السامى ، وبابتعاده عن الأنانية والرغبات والشهوات ، هو أعظم شىء خلقه الله فى هذا الوجود !!

وفى هذا الزمن الذى طغت فيه الأطماع المادية والأنانية الفردية ، نحن نحتاج الآن لمن يسمو بمشاعرنا .. نحتاج لهذا النوع من الحب .. نحتاج لزهور نستنشق عبيرها ، فتحرّك مشاعرنا ، وترقق عواطفنا ..

وفى كل قصة من قصص هذه السلسلة ، دَعْنا ننتقل من زهرة إلى زهرة .. فى بستان ملؤه جمال المشاعر .. ورقة الأحاسيس .. وزهور الحب .

المؤلف

١ ـ لُعبة الحب ..

أغمضت (سماح) عينيها متظاهرة بالنوم ، فى محاولة لتجنُّب ثرثرة (حكمت هانم) ، التى لم تتوقَّف عن الحديث طوال ساعة كاملة ، منذ أقلعت بهما الطائرة من (القاهرة) ، وبصحبتهما (مديحة) ، ابنة (حكمت هانم) ، فى طريقها إلى (تونس) ، وقد أضافت (حكمت هانم) إلى حديثها إلقاء التعليمات لابنتها ولـ (سماح) على نحو متواصل ، وكأنهما مقبلتان على مهمَّة من نوع بالغ الخطورة ..

والواقع أنهما كانتا فى طريقهما إلى (تونس) ، فى مهمَّة محدودة بالفعل ، على الرغم من التظاهر بأنها مجرَّد رحلة للسياحة والاستجمام ، ولم تكن (سماح) راضية عن المشاركة فى تلك المهمَّة ، إذ كان هناك شىء ما فى ضميرها ، يجعلها تشعر بعدم الارتياح ، على الرغم من كل التبريرات والغايات النبيلة ، التى حاولت (حكمت هانم) إقناعها بها ..

شىء ما كان يملؤها شعورًا بأنها تشارك فى لُعبة رخيصة ..

ولقد فتحت عينيها بعد فترة ، واختلست النظر إلى (حكمت هانم) وابنتها ، ثم تنفَّست الصُّعداء عندما وجدتهما قد استغرقتا فى النوم ، وأدهشها كيف أمكنهما ذلك ، وهما مقدمتان على خداع رجل ، والتلاعب بمشاعره الجريحة ..

نعم .. لقد كان الهدف من هذه الرحلة هو الإيقاع بذلك الشاب ، ذى المشاعر المُرهَفة والأحاسيس المخلصة (حسين) ، وكان الطُّعم هو (مديحة) ، حُبُّه القديم ، التى تخلَّت عنه يومًا وتنكَّرت لحُبِّه وإخلاصه لها ، ثم عادت بتعليمات من أمها ، التى ظلَّت دوْمًا ترسم خطواتها فى دِقَّة ، منذ نُعومة أظفارها ..

عادت لتعزِف على وتر مَشاعِره القديمة ، وتستردَّ الحبيب الذى باعته يومًا .

وتطلَّعت (سماح) إلى وجه (مديحة) ..

كان وجهها جميلًا بالفعل ، يعطى المرء انطباعًا بالرِّقَّة والبراءة والرُّومانسيَّة ، على عكس حقيقتها ..

وتعجَّبت (سماح) ، كيف يمكن أن ينطوى كل هذا الجمال على الجُحود والغَدْر ؟ وعادت تُردِّد لنفسها :

ـ لا .. لن أظلمها .. ربما هى ليست بذلك السوء ، الذى

تصوَّرتها به ، يوم تخلَّت عن (حسين) ، ويوم قرَّرت التأثير عليه لاسترداده ..

ولكن التأثير الحقيقىَّ يعود إلى الأم ، وتأثيرها الشديد على ابنتها ، ودفعها دوْمًا لتنفيذ إرادتها ، وإن لم تكن لتنجح فى ذلك ، لولا أن (مديحة) مُهيَّأة بطبيعتها لهذا الأسلوب ، ومُستعدَّة للتجاوُب مع أطماع ورغبات أُمها ..

وحوَّلت (سماح) وجهها عنها ، لتنظر من خلال نافذة الطائرة إلى السُّحب الممتدَّة أمامها ، وهى تتساءل :

ـ تُرى كيف يستقبل (حسين) (مديحة) ، بعد كل هذه السنوات ، التى مضت على فراقهما ؟..

هل سيغفر لها ما ارتكبته فى حقِّه فى الماضى ؟.. ولكن ربَّما يكون قد أحبَّ فتاة أخرى ، على الرغم من أن المعلومات التى جمعتها عنه (حكمت هانم) تؤكِّد أنه لم يتزوَّج بعدُ ، أو يرتبط بخِطبة مع فتاة أخرى ، ولكن هذا لا يمنع من ارتباطه عاطفيًا بفتاة ما ، نَسِىَ معها حُبَّه القديم لـ (مديحة) ، وخيانتها له ..

ولكن لا .. إن الحبَّ الكبير ، الذى أحبه لها ، لا يمكن أن يفارق قلبه بهذه السهولة ، فهى تعرف عُمقَ مشاعره ، التى أعجبتها دَوْمًا ، ولاتزال تذكر كيف كانت تراه ، وهى فى

السادسة عشرة من عمرها ، كأحد فرسان العصور الوسطى ، بقامته المشوقة ، وابتسامته الأخاذة ، وإن لم تسمح لمشاعرها هذه أبدًا بتخطِّى حدود الإعجاب ، لما تراه من عاطفة قويَّة نبيلة ، تجمع بينه وبين ابنة خالتها (مديحة) ، منذ كانا زميلين فى الجامعة ، وجارين بحىِّ المعادى ..

ولكن الأم وقفت فى سبيل تتويج تلك العاطفة بالزواج ، عندما تُوُفِّىَ والد (حسين) ، وعلمت بحقيقة مركزه المالىِّ ، وأن المصنع الذى يمتلكه لم يَعُد يكفى لسداد ما تراكَمَ عليه من ديون ، وبالتالى فإن ميراث (حسين) ، بعد وفاة الأب ، لم يتجاوز بضعة آلاف من الجنيهات ، لا تكفى أطماع الأم وتطلُّعاتها بالنسبة لابنتها .. تلك التطلُّعات التى جعلتها تنظر إلى كل أمور الحياة كصفقة ، لابدَّ أن تكون رابحة ، إلَّا أن الغريب هو استسلام (مديحة) لما طلبته منها أمها ، تخلِّيها عن (حسين) ، بحثًا عن زوج أكثر ثراءً ..

لقد عجزت هى أيامها ــ وحتى الآن ــ عن فهم ذلك أو تقبُّله ..

لقد كانت تتصوَّر أن (مديحة) شديدة التعلُّق بـ(حسين) ، وأنها لن تتخلَّى عنه أبدًا ، مهما كانت الظروف ، ولكنها فعلت ..

ولم يكن ذلك عجيبًا بالنسبة لـ(مديحة) ، كما أدركت (سماح) فيما بَعْد ..

ربما كانت تحب (حسين) بالفعل ، ولكن ذلك الحب لم يكن يكفى لهزيمة حبها لتلك الحياة ، التى رسمتها لها أُمها ، وأنشأتها حالمة بها ..

حياة الأميرات ..

ولم يتمح من ذاكرة (سماح) أبدًا ذلك المشهد المؤثِّر ، يومَ سعى (حسين) خلفهم ، إلى (الإسكندرية) ، بعد أسبوع واحد من رفض الأُم اقترانه بابنتها ، على ذلك النحو الجارح القاسى ، وهى تؤكِّد ــ دون حياء ــ أنه لم يعد يناسب ابنتها ماديًّا أو اجتماعيًّا ، وأنه من الأفضل له أن يبحث عن زوجة أخرى أقل .

ولكن (حسين) ظلَّ متشبثًا بالأمل ، على الرغم من سفر الأُم وابنتها إلى (الإسكندرية) ، فى محاولة لصَهْر مشاعر الابنة ، ومحوها فى بَوْتقَة من الحفلات والسَّهرات الفاخرة ، ذات البَذَخ والرفاهية .

وعندما جاء (حسين) إلى (الإسكندرية) ، كان مدفوعًا بقناعته إلى أن (مديحة) لن تتخلَّى عنه أبدًا ، وأن ما سمعه من

أمها لا يتعدَّى كَوْنَهُ رأيًا شخصيًا ، ولقد وصل يوم أخلدت فيه الأم وابنتها إلى الراحة ، بعد أن قضيتا يومًا شاقًا فى التسوُّق ، وقرَّرت فيه (سماح) قضاء بعض وقتها فى شرفة الفندق العامَّة ، المطلَّة على البحر ..

وكانت تغادر المِصْعَد ، فى طريقها إلى الشرفة ، فوق بساط الفندق الأحمر ، عندما خاطبها موظف الاستقبال ، قائلًا :

— آنسة (سماح) .. معذرةً .. لقد طلبت (حكمت هانم) وابنتها عدم إزعاجهما ، مهما كانت الأسباب ، ولكن هناك شخص يلحّ على طلب مقابلة الآنسة (مديحة) ، ولقد حاولت إقناعه بالحضور فى وقت آخر ، ولكنه ما زال يصرّ على مقابلتها ، و .....

قاطعه صوت (حسين) ، وهو يقول :

— أأنت (سماح) ، ابنة خالة (مديحة) ؟

التفتت إليه (سماح) ، ورأته فى هيئة رثَّة ، وقد نمت لحيته ، فأومأت برأسها إيجابًا ، وقد تأثَّرت لرؤيته على هذا النحو ، وغمغمت :

— نعم .. أنا هى .

قال فى صوت يشفُّ عن حال صاحبه :

— لابُدَّ أنك تعرفيننى .. أليس كذلك ؟

غمغمت فى خجل ورثاء :

— بلَى يا أستاذ (حسين) .. أعرفك .

بدا وكأن معرفتها له قد بعثت فى نفسه الارتياح ، فأسرع يقول فى رجاء :

— حسنًا .. لابُدَّ أن تساعدينى إذن .. أريد رؤية (مديحة) .

أجابته فى تَلَعْثُم :

— إنها تستريح الآن ، ولست أظنها .....

قاطعها متوسِّلًا :

— أرجوك .. لن أعطِّلها كثيرًا .. أريد أن ألتقِىَ بها بضع دقائق فحسب ..

هناك الكثير مما أريد قوله لها ، ولكننى سأختصره .. أعِدك بذلك .. فقط ساعدينى على مقابلتها .. أرجوك ، ودون أن تشعرَ والدتها ، حتى لا تحول بينى وبينها .

تردَّدت وهى تخشى مصارحته بموقف (مديحة) ، إلَّا أنه تشبَّث بها متوسِّلًا ، وهو يقول فى لهجة يصعب رفضها :

ـ أرجوكِ .. أنت لا تعرفين مقدار حبّى لـ (مديحة) .. أنا أعلم جيّدًا أنها واقعة تحت تأثير أُمها ، وأنها لن تتخلَّى عن حبنا بمثل هذه السهولة ، ولقد ادَّخرت مبلغًا من المال ، يمكننا أن نبدأ به حياة جديدة ، وإن اختلفت صورتها عمَّا رسمناه لها قديمًا ، ولكنها ستكون حياتنا ، وسنتزوَّج ، ونضع تلك الأم القاسية أمام الأمر الواقع ، فلن نستغنى عن بعضنا أبدًا .

أشفقت (سماح) أن تخبره بأن (مديحة) ليست من ذلك النوع ، الذى يضع عواطفه فوق مصالحه ، كما يتصوَّر ، ولكنها أبعدت أصابع (حسين) المتشبِّثة بذراعها فى رفق ، وهى تغمغم :

ـ سأحاول .

هتف فى امتنان وارتياح :

ـ شكرًا لك .. شكرًا .. سأنتظرك فى الشرفة .

اتجهت فى تردُّد إلى حجرة ابنة خالتها ، ولكنها توقَّفت على الرغم منها ـ أمام حجرة خالتها (حكمت هانم) ، وهى تتساءل عمَّا إذا كان من حقها أن تقوم بدَوْر الوَساطة بين (حسين) و (مديحة) ، دون أن تخبر خالتها بالأمر ، وهى التى تولَّت رعايتها منذ طفولتها ، بعد وفاة والديها ؟.. لقد

حذرتها خالتها مرارًا من تشجيع (مديحة) على مقابلة (حسين) ، وأخبرتها أنها تعتبرها راعية ابنتها ، على الرغم من أنها تصغرها بأربع سنوات ..

ولقد وعدتها هى بأن تفعل ..

فهل تفِى بوعدها ؟

إن خالتها و (مديحة) تريان أنه من الحماقة أن يتخلَّى المرء عن المال ، فى سبيل العاطفة ، فى حين ترى هى أن الحماقة الحقيقية هى أن يضحِّىَ المرء بتلك المشاعر الرائعة ، مهما كان الثمن ..

فهل من الخيانة أن تبلغ (مديحة) ؟..

لا ..

الخيانة الحقيقية هى أن تخون ثقة أودعها إيَّاها (حسين) ..

واسترجعت نظرات الرجاء والتوسُّل فى عينيه ، وأدركت أنها لا تملك سوى معاونته وتحقيق رغبته .

واتجهت إلى حجرة (مديحة) ..

* * *

٢ ــ جرح فى قلبه ..

فتحت (سماح) باب حجرة (مديحة) ، التى جلست تتزيَّن أمام مرآتها ، وقدْ ارتدت ذلك الثوب الجديد ، الذى ابتاعته لها والدتها هذا الصباح ، فغمغمت (سماح) :

ــ ظننتك نائمة .

أجابتها (مديحة) ، دون أن تلتفت إليها :

ــ لم أستطع مقاومة رغبتى فى ارتداء ثوبى الجديد .. إن ذوق أُمِّى رائع فى انتقاء الثياب .. أليس كذلك ؟

لم تجبها (سماح) على سؤالها ، فقد كانت تبحث عن وسيلة لنقل خبر وجود (حسين) فى الفندق إليها ، وتتساءل عمَّا إذا كان ذلك سيثير شوقها إليه ، فتُهْرَع نحوه فى لهفة ، حتى ولو بَقِىَ ذلك مجرَّد ردّ فعل وقتىّ ، سُرْعان ما يذوب أمام نَهَمِها إلى الحياة ..

انتزعها صوت (مديحة) من أفكارها ، وهى تسألها :

ــ ألا يعجبك الثوب ؟

ابتسمت ابتسامة باهتة ، وهى تقول :

ــ إنه رائع للغاية .

بدا كما لو أن (مديحة) قد انتبهت إلى شىء مَّا ، فقد رسمت على وجهها نظرة أسف مفتعلة ، وهى تقول :

ــ معذرةً يا (سماح) .. لقد نسينا أن نبتاع لك ثوبًا جديدًا ، فقد كانت أُمِّى متعجِّلة ، و .....

قاطعتها (سماح) فى لهجة سريعة) وكأنها تخشى التراجع :

ــ (مديحة) .. (حسين) ينتظرك فى شُرفة الفندق .

بوغتت (مديحة) بالخبر ، فظلَّت صامتة بُرْهَة ، وقد ارتسم على وجهها تعبير غريب ، هو مزيج من الدهشة والانزعاج ، وتلعْثمت قائلة :

ــ (حسين) ؟!.. ما الذى جاء به إلى هنا ؟

قالت (سماح) بنفس اللهجة السريعة :

ــ إنه يريد مقابلتك ، ولقد توسَّل إلىَّ من أجل هذا .

تطلَّعت إليها (مديحة) فى شُحوب ، واختفت الابتسامة عن وجهها ، وعادت تدير عينيها إلى مرآتها ، وتصمُت طويلًا ، قبل أن ينطلق الردّ القاسى من بين شفتيها ، وهى تصيح فى انفعال :

ــ لا .. لن يمكننى مقابلته .

وعلى الرغم من أن (سماح) لم تتوقَّع غير هذا ، إلَّا أن ردّ (مديحة) صدم شعورها شخصيًا ، فاندفعت تقول فى حِدَّة :

ــ ولكنّه فى حالة سيئة للغاية ، وهو لا يطالبك بأكثر من بضع دقائق للحديث .

هزَّت (مديحة) كتفيها ، دون أن تحوِّل عينيها عن المرآة ، وكأنها تخشى أن تلتقِىَ عيناها بعينى (سماح) ، وقالت :

ــ لا فائدة من الحديث ، لقد انتهى ما بيننا ، ولن نتجادل فى هذا الشأن .

قالت (سماح) :

ــ اجعلى القرار ينبع منك أنت ، ولا تجعلى خالتى تقرِّر لك كل أمورك .

أجابتها (مديحة) فى عصبيَّة :

ــ ومَنْ قال إنه ليس قرارى ؟.. إن قراراتى وقرارات أُمِّى تتفق دَوْمًا ، وهذا ليس عيبًا .

غمغمت (سماح) :

ــ ولكنك كنت تحبين (حسين) ، وكنتما تخطِّطــــان لزواجكما ، و .....

ارتسمت فى عينى (مديحة) نظرة تحارُ ما بيْنَ الألم والنَّدم ، وهى تقاطعها فى ضعف :

ــ يبدو أننى لم أحبه بالقدر الكافى ، وإلَّا فما تراجعت عن حبه فوْرَ اعتراض أُمِّى عليه .. الواقع أننى أحب الحياة .. أحبها رَغدة مَرِحة ، مع ثياب فاخرة ، وحفلات ، ومتاع .. أريد شخصًا يمنحنى كل هذا ، ولم تعُد ظروف (حسين) تسمح بذلك .. لست أنكر أننى أحببته ، ولكن جزءًا من هذا الحب كان يعود إلى ثرائه ، الذى كان سيعزِّز حبَّنا حتمًا ، ويضمن له النمُوّ والاستقرار .. أمّا بعد ظروفه الجديدة ، فستكون حياتنا شاقَّة مُرْهِقة ، ولن أحتملها حتمًا ، مع تعارضها مع كل ما حلمت به طيلة عمرى .. ربما أكون مخطئة ، وربَّما بدَوْت فى نظرك أنانية مدلَّلة ، ولكن هكذا أنا .. إنها طبيعتى ، ولن أخالفها ، ومن الأفضل ــ كما ترَيْن ــ ألَّا يرتبط (حسين) بفتاة مثلى ، فهو شابٌ جادّ ، مثالىّ العواطف ، يحاول أن يرسُمَ لى دَوْمًا صورة خيالية ، وهذا يعذِّبنى ، فهو يثقل علىَّ بتلك الصورة ، التى تضعنى فى مصافّ الملائكة ، وتدفعنى دوْمًا إلى التظاهر ، بـ .....

تردَّدت لحظة ، ثم أضافت :

ــ لا .. ليس مجرَّد التظاهر .. لقد كنت أسعى بالفعل لأكون هذه الصورة ، التى تخيَّلها عنِّى ، وكلما فشلت زاد شعورى بالذَّنب ، وكان هذا يُرْهِقنى ويعذِّبنى .. وأنا أريد أن

أعيش كما أنا ، وأن أكون ما أنا عليه بالفعل .. هل أدركت الآن أنه ليس قرار أمى ؟.. ولا بسبب الظروف المادّية وحدها .. إننى أختلف عن (حسين) .. أختلف عنه جذريًا ، وإن كنت أعترف بوجود شىء من الحب فى قلبى تجاهه .. لقد عذّبنى هذا طويلًا ، حتى جاء اعتراض أمّى ليحسم كل هذا العذاب والتردُّد فى أعماق ، وهذا أفضل .

قالت (سماح) فيما يشبه الرجاء :

ــ ألا يمكنك مقابلته بضع دقائق ؟ .. أسمعيه كلمات طيّبة على الأقل .

اتخذ وجه (مديحة) قناعًا باردًا جامدًا ، وهى تقول فى لهجة جافّة :

ــ لا .. لم يعُد بيننا ما يمكن قوله ..

قالت (سماح) ، وصوتها يحمل رنّة حزن :

ــ ولكنه يحبك كثيرًا يا (مديحة) ، وسيصدمه رفضك فى شدّة .

نهضت (مديحة) من مقعدها ، وراحت تدور حول نفسها فى بطء ، وهى تتأمّل ثوبها الجديد فى المرآة ، وتقول بلامبالاة :

ــ الزمن كفيل بعلاج الصّدمات ، هيّا يا (سماح) ..

اهبطى إليه ، وانصحيه بنسيان كل شىء ، والتعامل مع الواقع الجديد ، فهذا أفضل له .. ولكن عُودى سريعًا ؛ لتساعدينى فى انتقاء ثوب مناسب لسهرة الليلة .

تطلّعت إليها (سماح) لحظات فى أسف ، ثم انصرفت وقد تحوّل شعورها تجاهها إلى مزيج من استياء وغضب ، لم تعرفهما طِيلة عمرها ..

وكان (حسين) جالسًا فى أحد أركان الشرفة ، يدخّن سيجارته فى عصبيّة جعلته لا ينتبه إلى مشهد البحر الساحر ، وأمواجه المتلاطمة على كتل الصخور ، التى تطلّ عليها شرفة الفندق ، ولكنه لم يكد يرى (سماح) ، حتى ألقى سيجارته ، وهبَّ يستقبلها فى لهفة وشوق ، ولكنها شعرت بعجزها عن أن ترفع عينيها إليه ، فأطرقت برأسها مغمغمة :

ــ لست أدرى ماذا أقول ، ولكن .....

قاطعها فى شحوب :

ــ هل رفضت مقابلتى ؟

أومأت برأسها إيجابًا ، فانهار فوق مقعده ، وأدار وجهه إلى البحر ، متمتمًا فى مرارة :

ــ لا فائدة إذن .. لقد انتهى الأمر .

قالت (سماح) محاولة أن تطيّب خاطره :

ـ (مديحة) ابنة خالتي حقًّا ، ولكنني أقول لك ، وبمنتهى الصِّدق : إنها لا تستحقك ، فهناك آلاف الفتيات غيرها يتمنَّين شابًّا مثلك .

بدا شاردًا عمَّا تقول ، وهو يردِّد في حزن خافت :

ـ كنت أظنه تأثير أمها عليها ، ولكن يبدو أن الأم والابنة لا تختلفان .. إنها لم تكن تحبني كما توهَّمت ، لقد كانت تحب تلك الغنيمة ، التي تصوَّرت أن تحصل عليها بعد وفاة أبي .. أيُعقَل أنَّ هذه هي (مديحة) التي أحببتها ؟.. أيمكن أن يُخدع المرء في إنسانة كانت أقرب ما يمكن إليه هكذا ؟.. لقد كانت طِيلة علاقتنا كجزء منِّي .. أيمكن أن يَخُون الجزء الكل هكذا ؟.. أيمكن أن ينفصل عنه بكل هذا الجحود ؟! .

تأثَّرت (سماح) بقوله ، حتى أوشكت على البكاء ، فأمسكت يده في رفق ، وهي تقول :

ـ لا تندفع في مشاعرك على هذا النحو .. إن (مديحة) تكنّ لك شيئًا من الحب بالفعل ، ولكنه حبٌّ مبتور ، يشاركك فيه حبُّها القويّ لحياة الثراء والجاه ، فقد نشأت وتربَّت منذ طفولتها على نحو أشبه بالأميرات ، وغرست فيها خالتي الإحساس بأنها لم تُخلق إلا لتحيا حياة رغْدة ؛ ولهذا نشأ حبها لك فقيرًا ، لا يتساوى قطُّ مع مشاعرك النبيلة نحوها .

بدا كما لو أن (حسين) قد شعر بوجودها لأوَّل مرة ، فتطلَّع إليها طويلًا ، قبل أن يسألها :

ـ كم عمرك ؟

بدا لها سؤاله غريبًا ، ولكنها أجابته :

ـ سبعة عشر عامًا .

قال وقد ازداد تفرُّسًا في ملامحها :

ـ سبعة عشر عامًا ؟!.. إنك أصغر مما تصوَّرت بكثير ، وعلى الرغم من ذلك فأنت تملكين عقلًا وقلبًا أكثر رجاحة من الكثيرات .

تضرَّج وجهها بحُمرة الخجل ، وخُيِّل إليها أن شيئًا ما يسْري في جسدها ، أشبه برجفة لذيذة ، لهذا الإطراء ، وهو يستطرد :

ـ إنك تختلفين كثيرًا عن ابنة خالتك ، ولكن مَنْ يدري ، كيف ستغيّرك الأيام ؟ وهل ستحتفظين بتلك الأشياء الجميلة ؟ أم سيكون شأنك شأن الأخريات ، عندما تحين لحظة ارتباطك وزواجك ، فتتبدَّل مشاعرك ، وتقسين على من يمنحونك الحب ؟ .

انقلبت نشوتها إلى شعور بالمهانة لعبارته الأخيرة ، وتحوَّلت حُمرة الخجل على وجنتيها إلى احتقان غضب ، إلَّا أنها لم تلبث أن تمالكت نفسها ، مقدِّرة موافقة ، وهي تقول :

— لن أعاتبك على ما قلته الآن ، فأنا أقدّر مشاعرك ، ولكن كل ما أرجوه هو ألا يدفعك موقفك الشخصىّ إلى إصدار أحكام عامّة ، تجاه كل المشاعر الطيّبة ، والقيم النبيلة ، التى ما تزال تزخر بها الدنيا ..

وصمتت لحظة ، وهى تتطلّع إلى الحَيْرة التى ملأت وجهه ، قبل أن تستطرد :

— قد يُدهشك أن تصدر تلك الكلمات من ابنة السبعة عشر عامًا ، ولكن من أدراك أنها لم تَخْبرُ الحياة أكثر منك ؟.. لقد تُوفِّيَ والدك منذ بضعة أشهر فحسب ، وكنت تحيا وسط أسرة توفّرت لها أسباب الثراء والرفاهية ، ولم تختبر مثل الحِرْمان المادّىّ والمعنوىّ ، ولم تعرف قسْوَة اليُتم فى طفولتك ، والحياةَ فى كَنَفِ الآخرين ، حتى ولو كانوا يَمُتّون لك بصلة القُرْبَى ، ولكنهم يتعاملون وكأنهم يتفضّلون عليك بالعيش بينهم ، ويدفعونك إلى خشية مخالفة أمر من أوامرهم ، حتى لا تُتّهم بالجحود .. صحيح أنهم يَدّعون أمام الجميع أنهم يعاملوننى كفرد من أسرتهم ، ولكن الحقيقة تختلف ، فسأبقى بالنسبة إليهم دوْمًا فى الدرجة الثانية ، لا أتجاوزها بأى حال من الأحوال ، وإلّا وجدت نفسى فى الشارع .. هكذا تعلّمت ابنة السبعة عشر عامًا منذ طفولتها .. تعلّمت ما يجب أن يُقال ،

وما لا ينبغى أن يُذكر .. تعلّمت كيف لا تتجاوز الحدود المسموح بها ، وكيف تَتّقِى غضب الآخرين .. تعلّمت كيف تحيا فى كَنَفِ خالة قاسية ، وابنة خالة مدلّلة .. لقد كان من الأجدى أن أحلُم أنا بدوْرِ الأميرة ؛ لأننى قد حُرِمْت منه على الأقل ، ولكن كل ما أحلُم به هو قلب محب مخلص ، يزخر بالحنان ، وما زلت أجد ذلك نادرًا فى عالمنا وزماننا .

تأمّلها فى إعجاب صامت بعض الوقت ، ثم غمغم وهو يصافحها :

— كنت أتمنّى أن ألتقى بك فى ظروف أخرى .. أشكرك على أيّة حال .

تعلّقت بيده ، وقد عاودها شعورها بالأسى نحوه ، وسألته :

— ولكن ماذا ستفعل الآن ؟

لم تنجح ابتسامته الباهتة فى إخفاء مرارته ، وهو يقول :

— سأحاول أن أنساها ، وأبدأ من جديد .

استدار لينصرف ، إلّا أنه لم يلبث أن عاد إليها ، قائلًا :

— أشكرك مرّة أخرى ، لقد خفّف حديثك معى الكثير من جراحى .. لقد كنت أحتاج إلى إنسانة مثلك فى هذه اللحظات الأليمة .

رأت تلك الدموع المتصارعة فى مُقْلَتَيْهِ ، فخفق قلبها ألمًا ، وأدركت أنه قد تلقَّى بالفعل صَدْمة قاسية ، وأنها قد انشغلت بالدفاع عن نفسها ، متناسية أنه رجل فَقَد على التوّ مكانه فى قلب الإنسانة الوحيدة التى أحبها ، وعاش يُوقن من حبها له ..

رجل صُدِمَ فى كبريائه وكرامته ..

وقبل أن تنطق بكلمة ، كان قد استدار وأسرع يغادر المكان فى خُطوات واسعة ، ربَّما لأنه خشى أن يَعْجِز عن سجن تلك العَبَرات طويلًا فى مُقْلَتَيْه ..

العَبَرات التى لم يَعُدْ يملك سواها ..

وسوى كرامة جريحة ..

* * *



٣ ـــ لقاء مَرْفوض ..

انتبهت (سماح) على صوت مضيفة الطائرة ، وهى تهنئ الركّاب بسلامة الوصول إلى مطار (تونس) ، وبدأ الركّاب فى مغادرة الطائرة إلى رَدهة المطار ، وعادت خالتها إلى إلقاء الأوامر والتعليمات ، وكأنها تتحدَّث إلى سكرتيرتها الخاصَّة ، على حين راحت (مديحة) تخطو داخل الرَّدهة الضخمة فى خطوات رشيقة ، وعلى وجهها ابتسامة مشرقة ، وقد بدت سعيدة واثقة من نفسها ، ومن نجاحها فى تنفيذ الخُطَّة التى رسمتها لها أُمها ..

وبعد ساعة واحدة ، كانت (حكمت هانم) تقول لموظف الاستقبال ، فى ذلك الفندق ، الذى حجزت فيه الحجرات مسبقًا ، وهى تتحدَّث فى أرستقراطية :

ـــ لقد تم حجز حجرتين هنا ، باسم (حكمت هانم) .

أجابها موظف الاستقبال ، وهو يبتسم :

ـــ نعم يا سيِّدتى ، هناك حجرتان محجوزتان باسم

(حكمت هانم) ، فى الطابق الخامس لمدة أسبوع ، وأرجو أن تَطِيب لكُنّ الإقامة هنا .

قالت (حكمت هانم) :

ــ ربما طالت إقامتنا أكثر من أسبوع .

ابتسم موظف الاستقبال ، وهو يشير إلى حامل الحقائب ، ويناوله مفتاحَي الحجرتين ، قائلًا :

ــ سيكون هذا من دواعِي سرورنا يا سيِّدتى .

راحت (مديحة) تدير عينيها فيما حولها ، فى فضول واهتمام ، على حين بدت (سماح) غير مبتهجة ، على الرغم من جمال المكان ورَوْعته ، وسألت (حكمت هانم) موظف الاستقبال فى لهجة ودود :

ــ هل تعرف فندق (الأنوار) ؟

تطلَّع إليها الموظف ، وقد أدهشه تواضعها المفاجئ ، وسؤالها الذى بدا وكأنه محاولة للمقارنة بين الفندقين ، وأجاب :

ــ إنه يقع هناك ، على الساحل الغربىّ ، على مسافة مسيرة ساعتين من هنا بالسيَّارة .

سألته وهى تضغط حروف كلماتها :

ــ يقولون إن صاحبه مصرىّ .. أليس كذلك ؟

أجابها الرجل فى لهجة مهذَّبة :

ــ بلَى .. إنه المليونير المصرىّ (حسين وجدى) .. لقد أصبح المالك الفعلى للفندق ، بعد وفاة شريكه التونسىّ ، وشرائه لكل الأسهم من ورثته .

ابتسمت (حكمت) فى سعادة ، وقد سرَّها أنها لم تخطئ الهدف الذى جاءت من أجله ، وأن (حسين) قد عاد زوجًا مناسبًا لابنتها ، بعد أن حاز صفة المليونير ، التى وصفه بها موظف الفندق ، فى حين تنبَّهت (مديحة) إلى اللقب ، فهتفت مبهورة :

ــ مليونير ؟!.. هل أصبح (حسين) مليونيرًا حقًّا ؟!

أمَّا (سماح) ، فقد شعرت بالسعادة والرضا لما سمعته ، إذ رأت أن (حسين) قد حصل على ما يستحقه من تعويض ، وأن إعجابها به يتزايد ، بعد أن نجح بكدِّه وجدِّه فى إعادة بناء نفسه ، والتغلُّب على كارثة ضياع مصنع والده ، وصدمته فى حبِّه ..

والعجيب أنها شعرت فى تلك اللحظة بلهفة شديدة .. لهفة إليه ..

* * *

توقَّفت سيارة الأجرة أمام فندق (الأنوار) ، وهبطت

منها (حكمت هانم) و (مديحة) و (سماح) ، ووقفن يتطلعن
إلى الفندق مبهورات ، فقد كان يقع على رَبْوَة خضراء ، تطلُّ
على ساحل البحر ، وقد أحاطت به أشجار النخيل ، وصفوف
متراصَّة من شجيرات خضراء وارفة ، فى مشهد رائع خلَّاب ،
فتن (مديحة) وبهرها ، فهتفت مشدوهة :

ـ يا لَه من مكان رائع بديع يا أُمَّاه !!.. أيملكه (حسين)
حقًّا ؟!

أضافت الأم ، وهى تدير عينيها فى المكان فى نَهَم :

ـ لاتنسَىْ أنه يمتلك أيضًا مصنعًا للملابس والأدوات
الرياضية ، وما خَفِىَ كان أعظم .

قالت (مديحة) متهكِّمة :

ـ أهذا هو الشاب الذى رفضته زوجًا لى يومًا ، ووصفته
بأنه صُعْلوك ؟

أجابتها وهى تُهَنْدِم ثوبها :

ـ ومن أدرانى أن الصُّعْلوك سيصبح مليونيرًا بهذه
السرعة ؟ ولا تنسَىْ أنك لم تتردَّدى لحظة فى رفضه آنذاك ..
ولكن من الواضح أننا قد أخطأنا الحكم عليه ، ومن الضرورىّ
أن نعترف بذلك ، فلقد أثبت أنه لايفتقر إلى الذَّكاء أو
الإرادة ، ويمتلك كل مقوِّمات النجاح .

سألتها (مديحة) :

ـ ولكن لماذا لم نأتِ لنقيم فى هذا الفندق مباشرة ؟.. ألم
يكن ذلك يمنحنا فرصة أفضل فى لقاء (حسين) ؟ خاصَّةً وأنه
كان من المحتمل أن يمنحنا هو إقامة مجانيَّة .

رمقتها أُمها بنظرة لَوْم وسُخط ، وهى تقول :

ـ يا لَلعجب !!.. تُبدين أحيانًا من السذاجة ما يدفعنى
للشك فى كَوْنِك ابنتى !!.. لقد أخبرتك أنه من الضرورىّ أن
يبدُوَ الأمر كما لو أننا نلتقى بـ (حسين) بمحض الصُّدفة ، حتى
لايشعر ـ ولو لحظة واحدة ـ أننا نسعى خلفه طمعًا فى
ثروته ، أو أن أحوالنا قد تدهورت ، فأتينا لنفرض أنفسنا
عليه .. يجب أن نحافظ على اعتزازنا بأنفسنا أمامه ، فلا رَيْبَ
أنه يحمل لنا الكثير من الذكريات السَّيِّئة ، بعد رفضنا له
قديمًا ، ودورك هو أن تظهرى لهفتك وفرحتك برؤياه ،
وتخترعى المبرِّرات والأسباب التى اضطرتك لرفضه ، واللَّعب
على أوتار مشاعره ؛ لإيقاظها من جديد ، على أن يبدو ذلك
طبيعيًّا غير مُفتعل ، بحجة أننا قد أتينا (تونس) لقضاء أسبوع
سياحىّ ، ثم علمنا بالمصادفة أنه يمتلك هذا الفندق ، فأتينا
لزيارته كصديق ، ومن الضرورىّ أن تتوخَّى الحذر فى
أسلوبك ، فلو كشف أمرنا فقد يجدها فرصة للانتقام والتَّشفِّى .

شعرت (سماح) باشمئزاز من أسلوب خالتها ، وتدخلت قائلة فى ضيق :

ــ (حسين) ليس غبيًا كما تتصوَّران ، ولن تنطلِىَ عليه لعُبتكما بهذه السهولة .

وخَفَت صوتها ، وهى تستطرد :

ــ وإن كنت أظن أن حبه لـ (مديحة) سيكفى لينسى كل شىء ، ويغفر لها ، ويعود إليها .

سألتها خالتها فى دهشة :

ــ وما الذى يجعلك واثقة هكذا ؟

أجابت (مديحة) بدلًا منها :

ــ لقد كنت أقصّ عليها كل ما بينى وبينه ، وهى تدرك شِدَّة ارتباطه بى .

قالت الأم فى ضَجَر :

ــ حسنًا .. دَعونا لا نضيّع الوقت ، ولنبدأ خُطّتنا على الفور .

فى نفس اللحظة كان (حسين) يغادر الفندق من باب خاصّ ، فلمح (حكمت) وابنتها و (سماح) ، ولقد أدهشه ذلك فى البداية دهشة سمَّرته فى مكانه ، قبل أن ينادى أحد خدم الفندق ، ويقول له فى حزم :

ــ اسمع يا (صلاح) .. أخبر موظف الاستقبال أن سيِّدة وفتاتين سيسألْنه عنّى ، فليخبرهن أننى غير موجود ، وأننى قد غادرت (تونس) لمدة يومين أو ثلاثة ، وإذا حاولت السيِّدة استئجار حجرة بالفندق ، فليبلغها أن الحجرات كلها محجوزة لشهر على الأقل .

قال هذا وعاد أدراجه إلى الفندق ، فسأله الرجل فى حَيْرة :

ــ ما اسم السيِّدة يا سيِّدى ؟

أجابه (حسين) فى توتُّر ملحوظ ، وهو يدلف إلى المِصْعَد :

ــ (حكمت هانم) .

ثم ألصق جبهته بجدار المِصْعَد ، وهو يصعد به إلى الطابق الذى يقيم فيه ، وراح يردِّد فى اضطراب واضح ، والعرق يتصبَّب على جبينه :

ــ لماذا عادت ؟.. لماذا ؟.. لقد نسيتها .. نسيتها .

ــ ولكن اضطرابه كان يؤكِّد أنه لم يفعل .. ولم ينسها أبدًا ..

* * *

٤ ــ مَشاعر مُتناقِضة ..

لم يكد (حسين) يلمح انصراف (حكمت هانم) والفتاتين، من نافذة جناحه الخاصّ ، حتى أسرع يهبط إلى موظف الاستقبال ، ويسأله فى لهفة :

ــ ماذا حدث ؟

أجابه الرجل :

ــ لقد سألتنى عنك السيِّدة ، فأخبرتها أنك ستتغيَّب ثلاثة أيام خارج (تونس) ، كما أمرت ، فأبدت هى وإحدى الآنستين أسفهما لذلك ، وتركت لك الآنسة خطابًا ، وقالت إنها ستعود لرؤيتك بعد ثلاثة أيام .

اختطف (حسين) الخطاب من يد موظف الاستقبال فى لهفة ، وفضّه ليقرأ ما كتبته (مديحة) .

« عزيزى حسين ..

حضرت إلى (تونس) فى صحبة والدتى ، وابنة خالتى (سماح) ؛ لقضاء أسبوع للراحة والاستجمام ، بعد انقضاء

فترة عصيبة من فترات حياتى ، ولقد أسعدنى للغاية أن أعلم أنك قد أصبحت تمتلك فندقًا هنا ، وحضرنا جميعًا لمقابلتك وتهنئتك ، ولكننا وجدناك متغيبًا للأسف ، ولكننى سأعود إليك بعد ثلاثة أيام ، فأنا أشعر بشوْق شديد لرؤيتك ، قبل عودتى إلى القاهرة » ..

ملحوظة :

لو عدت قبل الأيام الثلاثة ، فاحضُر لزيارتنا فى فندق (هيلتون) ، حيث نقيم ..

(مديحة)

زاغت عيناه وهو يعتصر الورقة بيده ، ويلتقط نفسًا عميقًا ، دون أن يتحرَّك من مكانه ، فسأله موظف الاستقبال فى قلَق :

ــ أأنت بخير يا سيِّدى .. هل حدث شىء ما ؟

أجابه (حسين) فى صوت خافت ، تشوبه نبْرة حزن :

ــ لا .. لا شىء .. مُرْ بصرْف سيارتى وسائقى ، فلن أغادر الفندق اليوم ، ولست أحب أن يزعجنى أحد ، فأنا مريض ، وأحتاج إلى الراحة ..

وعندما صَعِد مرَّة أخرى إلى جناحه ، كان يعلم أنه حقًّا مريض ..

* * *

شعور متناقض ، ذلك الذى ملأ نفس (سماح) ، منذ عودتها إلى الفندق ..

لقد أسعدها عدم لقاء (مديحة) بـ(حسين) ، لما كان سينطوى عليه من خداع وتلاعُب بقلبه ومشاعره اللَّذيْن تحترمهما ، وأحزنها أنها لم تَرَهُ ، ولم تلتقِ به ، على الرغم من شوْقها لذلك ..

وكان ذلك التناقض يُرْبِكها ، ويَزيدُ من شعورها بالضيق والتبرُّم ، اللَّذيْن لازماها منذ بدأت الرحلة ، حتى لقد تمنَّت لو أنها لم تحضُر إلى (تونس) قَطُّ ..

وانتزعها من خواطرها وتوتُّرها صوت (مديحة) ، وهى تقول :

— (سماح) .. ألا تسمعيننى ؟.. إننى أتحدَّث إليك .

انتفضت ، وهى تلتفت إليها قائلة :

— مَعذِرةً يا (مديحة) ، يبدو أننى قد شرَدْت قليلًا .

سألتها (مديحة) :

— أخبرينى .. أتظنين أننا سننجح فى لقاء (حسين) ، قبل عودتنا إلى (القاهرة) ؟

— لو عاد بعد ثلاثة أيام ، كما أخبرنا موظف الاستقبال فى فندقه ، فسنلتقى به .

— ولكنه أصبح رجل أعمال ، ومثله لا يمكنهم التحكُّم فى أوقاتهم ، وقد يقتضى منه الأمر التغيُّب خارج (تونس) لأكثر من ذلك .

— اطمئنى .. إن خالتى مُصِرَّة على إتمام ذلك اللِّقاء ، حتى ولو اقتضى منها الأمر قضاء أسبوع آخر فى (تونس) .

— ولكن ذلك يُرهق ميزانيتنا ، فأنت تعلمين أن الأمور لم تعُد بالنسبة إلينا كما كانت فى الماضى ، والإقامة فى فندق كهذا تتطلَّب الكثير من المال .

— أليس من الأفضل إذن أن نعود إلى (القاهرة) ؟!.. إننى أجد أنه لا مبرِّر للعب كل ذلك الدَّوْر ، وإعداد كل تلك التدابير ، للظفر بقلب رجل رفضته يَوْمًا ، خاصَّة وأنك جميلة ، وستجدين العشرات ممن يمكنهم منحك نفس ما سيمنحك (حسين) إيَّاه ، بل أكثر منه ، مع ملاحظة أن كل ما يدفعك إليه هو الثراء ، وليس الحب .

أجابتها (مديحة) فى سخرية حزينة :

— أنسيت أننى قد اختبرت ذلك يومًا ؟.. لقد تزوَّجت (عبد القادر) ، الثرىّ المعروف ، المقامر السِّكِّير العِربيد ،

الذى لم أكن له سوى واجهة اجتماعية يتباهى بها أمام الآخرين ، ثم كشفت بعد وفاته أنه كان متزوّجًا من أخرى ، باعها كل أملاكه ، وأنه قد سخر منّى حيًا وميتًا .. لا .. لست مستعدة لتكرار تلك التجربة المؤلمة .

قالت (سماح) :

ــ ليس الجميع مثل زوجك السابق ، فليس من الضرورة أن يكون كل ثرىّ مقامرًا سِكّيرًا عِرْبيدًا ، ثم لا تنسَىْ أنه كان من اختيار أُمك أيضًا .

غمغمت (مديحة) :

ــ كان أسوأ اختيار قادتنى إليه .

ــ ومع ذلك فهأنتذى تتبعين خياراتها مرّة أخرى ، وترضين بلعب ذلك الدّوْر اللاأخلاقىّ ، لاستعادة رجل أحبك يومًا ، ورفضته أنت بكل قسوة .

ــ لا يا (سماح) .. الأمر يختلف بالنسبة لـ (حسين) ، فلست أطيع أُمّى لمجرّد الطاعة هذه المرّة .. إننى أحب (حسين) ، وأنت تعلمين ذلك .

ــ أين كان ذلك الحبّ إذن ، عندما جاء يرجوك بضع دقائق فى (الإسكندرية) ، فرفضت حتى مقابلته ، وجرحت كبرياءه ومشاعره؟.. هل عاد فقط بعد أن أصبح مليونيرًا؟

أشاحت (مديحة) بوجهها ، وهى تقول معترضة :

ــ كفاك تهكّمًا .. إننى لم أنكر حبّى لـ(حسين) حينذاك ، ولا حبّى للذاتى ، وللحياة الرَّغدة الناعمة .. لم أنكر حبّى للثراء ومظاهر الرَّفاهِيَة ، ولو كان (حسين) ثريًّا حينذاك ما رفضته ..

هتفت (سماح) فى انفعال :

ــ بأىّ منطق تتحدّثين ؟.. إنك تخلطين المشاعر بالمادّيات دون تمييز .. إن الحب يأتى دَوْمًا فى المقام الأوّل ، فكفى بالمرء شخصًا يبادله حبًا صادقًا شريفًا ، ليُلْقِىَ كل المادّيات خلف ظهره .. إن الحب ثروة لا تعدلها ثروة ، أمّا المزج بين الحب والمادّة ، والتضحية بالحبيب لو افتقر إلى الثراء ، وعجز عن توفير الحياة الرَّغدة المرَفّهة ، فهذا لا يَعْنى سوى أمر واحد ، وهو أنك تجهلين ما الحب ، ولن يمكنك معرفته يومًا ؛ لأنك لا تحبين سوى شخص واحد ، هو نفسك .

صاحت (مديحة) فى غضب :

ــ كيف تتحدّثين إلىّ هكذا يا (سماح) ؟.. أنسيت نفسك ؟

بدا وكأن هذا القول قد أيقظ (سماح) ، فأطـرقت برأسها ، قائلة فى مرارة :

ــ مَعْذِرةً .. يبدو أننى قد نسِيتُ نفسى بالفعل .. نسيتُ أننى ، وعلى الرغم من كَوْنِى ابنة خالتك ، وأقيم بنفس حجرتك ، أنَّ دَوْرِىَ الحقيقىَّ لايَعْدُو كَوْنِى خادمة أو وصيفة ، وأنه ليس من حقى تجاوُز حدودى ، خاصَّة وأن خالتى وزوجها لهما علىَّ أفضال لاتُحصَى ، فقد أنقذانى من اليُتم والجوع والتَّشريد ، و .....

قاطعتها (مديحة) فى نَدم :

ــ (سماح) .. إننى لَمْ .....

ولكن (حكمت هانم) دلفت إلى الحجرة فى هذه اللحظة ، وهى تقول فى غَطْرَسَة :

ــ ماذا حدث ؟.. لقد سمعتكما من حجرتى المجاورة تتجادلان فى صوت مرتفع .

أجابتها (سماح) ، ودموعها تترَقْرق فى عينيها :

ــ لاشىء .. لم يحدث شىء .

وعندما اندفعت خارج الحجرة ، كانت عيونها تتفجَّر بالدموع ..

دموع القَهْرِ والمَرارَة ..

* * *

٥ ــ لِقاء مُفاجئ ..

لم تَدْرِ (سماح) إلى أين تقودها قدماها ، منذ غادرت الفندق غاضبة ، واستقلَّت أوَّل حافِلة عامَّة ، نقلتها بعد مسيرة نصف الساعة إلى ميدان كبير ، راحت تُجَوِّل فيه ، على غير هُدَى ، حتى توقَّفت أمام واجهة أحد محال الثياب ، وهزم فضولها مشاعرها الغاضبة ، وهى تستعرض الثياب النسائية الأنيقة والمُبْهِرة ..

ودَفَعها الفضول إلى دخول المحل ، لمشاهدة تلك الثياب عن قُرْب ، ما دامت لاتملك مايكفى لاقتنائها ، وراحت تستمتع بمشاهدة الثياب فى الداخل ، دون أن تجرؤ حتى على لَمْسِها ..

وعلى الرغم مِمَّا سبَّبته لها (مديحة) من شعور بالألم والمَهانة ، إلَّا أن أوَّل ما جال بخاطرها ، وهى تستعرض الثياب ، وبعفويَّة شديدة ، هو أن ترشدها إلى ذلك المتجر ، وقد تناست كل ما حدث ، وتذكَّرت فقط أنَّ ابنة خالتها تهْوَى ذلك النوع من الثياب الفاخرة ، وأنها ستسعد حتمًا

لو امتلكت أحدها ، وهى تسعَدُ بدوْرِها ، عندما ترى سعادة (مديحة) ، فهى لم تطمع يومًا فى امتلاك ثوب فاخر ، على الرغم من أن (مديحة) تتنازل لها من آن لآخر عن بعض ثيابها الغالية ، وكانت هى تكتفى برؤية الثوب الجديد على جسد (مديحة) ، و .....

وفجأة ارتطمت بشخص ما ، وهى تتراجع إلى الخلف ، لتأمُّل ثوب أنيق ، فاستدارت تغمغم فى ارتباك :

ــ مَعْذِرةً .. إننى لم .....

لم تكتمل عبارتها ، وعقدت المفاجأة لسانها ، وهى تحدِّق فى وجه ذلك الشخص ، قبل أن تهتف :

ــ أستاذ (حسين) ؟!

تطلَّع إليها فى دهشة ، وبدا وكأنه يبذل جهدًا ليتذكَّرها ، قبل أن يهتف :

ــ يا إلٰهى !!.. أنت ذات السبعة عشر ربيعًا التى التقيت بها فى منزل (حكمت هانم) ، وراحت تتحدَّث بما يتجاوز عمرها .. أليس كذلك ؟

لم تجبه (سماح) ، وإنما هتفت فى دهشة :

ــ ولكنهم أخبرونا أنك قد غادرت (تونس) !!

ــ مَنْ هؤلاء ؟

ــ أقصد موظف الاستقبال فى فندقك .

ــ وهل ذهبت إلى فندق ؟

ــ نعم .

ــ وحدك ؟

ــ بل مع خالتى و (مديحة) .

أطلق زفرة قصيرة ، عندما سمع اسم (مديحة) ، ثم تجاهل الأمر ، وهو يسألها :

ــ وما الذى دفعكم إلى الذهاب إلى فندق؟.. بل ما الذى أتى بكم إلى (تونس) ؟

ضايقها أنه يمطرها بالأسئلة منذ التقيا ، فسألته بدوْرِها :

ــ وهل أزعجك هذا ؟

أجابها فى صراحة قاسية :

ــ لايمكننى أن أنكر هذا .

ثم أردف متسائلًا :

ــ ولكن لماذا أتيتم إلى (تونس) ؟. ومن أخبركم أننى أمتلك هذا الفندق ؟

صمتت برهة وهى تفكِّر .. أتخبره بالحقيقة أم لا؟. ووجدت نفسها تكرِّر ما سمعته من خالتها فى آلية :

ــ لقد جئنا للاستجمام والسياحة ، فخالتى مريضة ،

ولقد نصحها الأطباء بالاستشفاء هنا ، ولقد علمنا من موظف فندقنا ـــ بالمصادفة ـــ أنك تمتلك فندقًا فى (تونس) .

قالتها وهى تطرق بوجهها أرضًا ، وقد غمرها شعور عارم بالذنب ، وانتظرت أن تتلقّى منه رَدًّا ، إلّا أنه تحوَّل عنها إلى فتاة جميلة ، أقبلت نحوه مرتدية ثوبًا من الدانتيلّا الزرقاء ، وهى تقول :

ــ ما رأيك ؟

أجابها فى هدوء :

ــ رائع .. دُورِى حول نفسك .

أطاعته الفتاة ، وهو يتأمّلها فى دقَّة ، ثم قال :

ــ حسنًا ، ستشاركين به فى عرض الأزياء ، الذى سيقام بفندق ، يوم الأحد القادم ، والآن اذهبى إلى مدام (سيمون) ، واطلبى منها تضييق الخصر قليلًا .

أطاعته الفتاة هذه المرَّة أيضًا ، وهى تُلقِى إليه بقبلة فى الهواء ، فسألته (سماح) فى فُضول :

ــ أهى صديقتك ؟

أطلق ضحكة قصيرة ، قبل أن يسألها :

ــ ما رأيك ؟

أجابته فى حرج :

ــ إنها جميلة جدًا .

تابع ضحكته ، وهو يقول :

ــ لست أتحدَّث عنها ، بل عن الثوب .

أجابته فى حماس :

ــ إنه رائع خلّاب .

ــ أترغبين فى اقتناء ثوب مثله ؟

ــ كل فتاة ترغب فى ذلك ، ولكننى لا أمتلك ثمنه .

ــ لم أسألك عن الثمن ، سألتك فقط عمّا إذا كنت ترغبين فى اقتناء ثوب مثله .

ــ لست أظنه يناسب فتاة مثلى .

ركَّز نظراته على وجهها ، وهو يقول :

ــ ولكنه يناسب فتاة مثل (مديحة) .. أليس كذلك ؟.. إنه يدخل ضمن الأشياء التى تعشقها ، والتى تضحِّى من أجلها بالكثير ، وبعواطف رجل أحبَّها بكل صدق وإخلاص .

تُخيِّل إليها أن نظراته تحاصرها ، كأنما هى المذنبة ، فأدارت دفَّة الحديث ، قائلة :

ــ ولكن ماذا تفعل فى هذا المتجر ؟.. أصديقتك هذه الفتاة أم خطيبتك ؟

ابتسم ابتسامة باهتة ، وهو يقول :

ـ إننى أمتلك هذا المتجر ، إلى جوار الفندق ومصنع للملابس الرياضية ، وهذه الفتاة ليست صديقتى أو خطيبتى ، إنها عارضة أزياء تعمل لحسابى هنا ، وفى عروض الأزياء ، التى أقيمها فى فندق ، بين حين وآخر .

اكتسى وجهها بحُمرة الخجل ، وهى تقول مبتسمة :

ـ ولكن تلك القُبْلة ، التى أرسلتها لك فى الهواء تفُوق ذلك .

اتسعت ابتسامته ، وهو يقول :

ـ ما زال فهمك يتجاوز عمرك .

هتفت مُحْتجَّة :

ـ لم أعُد صغيرة ، إننى فى الثانية والعشرين من عمرى .

ضحك (حسين) قائلًا :

ـ وعلى الرغم من ذلك ، فما زالت معلوماتك قاصرة فى هذا المجال .. إن لى بعض الصديقات بالطبع ، ولكن ليس على النحو الذى تتصوَّرينه .

ـ ولكن الدنيا قد ابتسمت لك كما أرى ، فأنت تملك فندقًا ، ومحلًا للأزياء ومصنعًا للثياب الرياضية .. لقد صِرْت مليونيرًا فى زمن قياسىّ .

ـ هذا صحيح ، ولكن هذا لم يحدث دفعة واحدة .

ـ كيف حدث إذن ؟

ـ سأخبرك ، ولكن ليس هنا ، فالمكان لا يصلح لذلك .

وأخبر مدير المتجر بأنه سيتغيَّب بعض الوقت ، ثم قال لـ(سماح) :

ـ هيَّا .. سنذهب بسيَّارتى .

ولم تسأله عن المكان الذى سيذهب بها إليه ..

إنها حتى لم تحاول ..

لقد انساقت خلفه كالمُسَيَّرة ، وهى تشعر برغبة ملحَّة فى معرفة قصَّته ..

وفى مرافقته ..

* * *

٦ ــ اللِّقـاء المُرْتَقَب ..

امتدَّ بصره إلى الأفق المواجه لفندقه ، وبدا شاردًا ، وهو يقول :

ــ لقد حملت معى المبلغ الصغير ، الذى تبقَّى من ثروة أبى ، وجئت إلى هنا ، بعد لقائنا الأخير فى (الإسكندرية) ، وكنت قد اتفقت مع صديق لوالدى ، على العمل كمدير لهذا الفندق ، الذى يمتلكه ، ولقد وافق ــ وفاءً لأبى ــ على أن أسهم بنقودى القليلة فى رأس مال الفندق ، وتعاملت أنا معه بكل كفاءة وإخلاص ، وكان هو يعتبرنى ابنه ، بعد وفاة ابنه الوحيد . فتنازل لى عن هذا الفندق قبل وفاته بيوم واحد ، وتحوَّل الحب الفاشل ، والمشاعر الجريحة ، التى جئت بها إلى هنا ، إلى إرادة قويَّة ، وعزيمةَ لا تخمد ، وإصرار لا يلين على النجاح والتفوُّق ، وهكذا حقَّق الفندق أرباحًا ضخمة خلال سنوات قليلة ، وأضفت إليه مصنع الملابس الرياضية ، ومحل الأزياء .

سألته فى اهتمام :

ــ أيَعْنِى هذا أنك قد تغلَّبت على مشاعرك نحو (مديحة) ؟

فرَّ من السؤال فى ذكاء ، وهو يسألها :

ــ مَعْذِرةً .. هذا يخجلنى ولكن ما اسمك ؟.. إنك لم تخبرينى به ، ولقد نسيته .

أجابته فى خيبة أمل :

ــ (سماح) .

هتف :

ــ آه !! تذكَّرت .. كيف يمكن أن ينسى المرء صفة رائعة كهذه .

حاولت أن تتكلَّم ، ولكنه قاطعها قائلًا :

ــ (سماح) ، أعتقد أنك قد تأخَّرتِ ، وأظنهم سيقلقون بشأنك الآن ؛ لذا أقترح أن أقوم بتوصيلك إلى فندقك ، ولنتابع حديثنا فيما بَعْدُ .

لم تجد (سماح) بُدًّا من الاستسلام لاقتراحه ، وقد بدا عازفًا عن خوض أى حديث آخر ، وتركته ينطلق بها إلى فندقها ، حيث ودَّعها أمامه ، قائلًا :

ــ (سماح) .. أريد منك أن تَعِدِينى بأمر ما ، وهو ألا تبلغى (مديحة) بأننا قد تقابلنا ، فلا أريد أن تعرف بوجودى فى (تونس) حتى الغد على الأقل ، ولا تسألينى عن السبب .

أخفت دهشتها ، وهى تقول :

ــ أعِدك بذلك .

ابتسم قائلًا :

ــ وأنا واثق من أنك ستحفظين وعدك .. والآن ، هل نلتقى غدًا ؟

همَّت بالاعتذار ، ولكنه وضع إصبعه فوق شفتيها ، مشيرًا إليها بعدم التحدُّث ، وقائلًا :

ــ لا .. لا أعذار .. ستأتين .. يجب أن أراك ، فما زالت لدىَّ رغبة قويَّة فى التحدُّث إليك .

أجابته دون وَعْى :

ــ وأين سنلتقى .

ــ أمام جامع (القيروان) .

ــ ولكننى لم أذهب إليه قَطُّ .

ــ استقلِّى واحدة من سيَّارات الأجرة ، واطلبى من سائقها توصيلك إلى مدخل الجامع الرئيسىّ ، وهناك ستجديننى فى انتظارك ، فى العاشرة صباحًا .

ــ سأحاول .

ــ أنا واثق من أنك ستفعلين .

هبطت من السيَّارة ، واتجهت نحو الفندق ، ولكن صوته استوقفها :

ــ (سماح) .

التفتت إليه ، وخفق قلبها وهى ترى ابتسامته الأخَّاذة ، التى افتقدتها طويلًا ، وهو يقول :

ــ لقد سعدت حقًّا بصحبتك .

غمغمت فى حياء :

ــ وأنا أيضًا .

ثم أسرعت تعدو نحو الفندق ، وقد أورثها خفقان قلبها خوفًا مفاجئًا ..

لم يكن ذلك التغيير المفاجئ الذى اعتراها ، هو مصدر خوفها ، وإنما كان (حسين) ..

كانت تخشى ، لو توقَّفت أمامه لحظة واحدة ، أن يسمع دقَّات قلبها ، وهى تتزلزل ما بين جوانحها ..

وأدركت لحظتها أنها قد وقعت ..

وقعت فى هوَاه ..

* * *

هُرِعت إليها خالتها فور رؤيتها ، والقلق يرتسم على وجهها ، وهتفت بها :

ــ أين كنت يا (سماح) ؟ لقد أقلقتنا عليك كثيرًا .

أجابتها (سماح) فى هدوء :

ـ معذرة يا خالتى .. لقد شعرت برغبتى فى استنشاق بعض الهواء بالخارج .

قالت خالتها فى عِتاب :

ـ لا تُقدِمى على هذه الحماقة مرَّة أخرى ، فلا يجوز أن تغادرينا إلى جهة مجهولة ، وتتركينا لكل هذا القلق ، كلما نَشِب خلاف بسيط بينك وبين ابنة خالتك .

واندفعت (مديحة) تحتضنها ، عندما رأتها مُقبلة مع أمها ، وهى تقول :

ـ (سماح) .. أنا آسفة حقًا .. ربما بَدَوْت فى بعض الأوقات متهوِّرة ، و .....

قاطعتها (سماح) :

ـ ليس هناك ما يستحق أن تعتذرى عنه .

ـ أين ذهبت ؟

ـ لقد جَوَّلت فى المدينة قليلًا .

قالت خالتها :

ـ والآن عُودا إلى حجرتكما ، فكلنا بحاجة إلى الرَّاحة ، بعد ذلك الإرهاق العصبىّ ، الذى تعرَّضنا له بسببك يا (سماح) .

لم تجد (سماح) فى نفسها ميلًا إلى الغضب من لهجة خالتها

الجافَّة ، كما لم تكن تحتاج إلى اعتذار (مديحة) ، ولا إلى التفكر فيما قالته ، فقد كان هناك شىء واحد يقلقها ، ألا وهو ذلك اللقاء ، الذى دبَّره القَدر بينها وبين (حسين) ..

ظلَّت شاردة ، وهى تستعيد وقائع ذلك اللقاء ، وحديث (حسين) معها ، وذلك الشعور الغريب ، الذى اعتراها وهى تودِّعه ..

وبرغم إحساسها بالذنب ؛ لأنها أخفت على (مديحة) ما حدث ، إلَّا أن ذلك كان يختلط فى أعماقها بلمحة من السعادة ، لوجود سرٍّ صغير تتشارك فيه مع (حسين) ، حيث أصبحت وحدها تعلم أنه لم يغادر تونس ، ووحدها يمكنها مقابلته والاستماع إليه ..

وألقت رأسها على الوسادة ، وتركت (مديحة) تتحدَّث ، دون أن تنصت إليها ، وعيناها تلتهمان عقربى الساعة المعلَّقة على الحائط ، وهى تتعجَّل لحظة اللقاء ..

لقاء (حسين) ..

* * *

استقبلت (حكمت هانم) وابنتها رغبة (سماح) فى التَّجوال فى المدينة بمفردها بدهشة بالغة ، فهما لم تعرفا فيها ذلك الميل للجوْلات المنفردة ، فقد كانت تميل دوْمًا إلى البقاء فى الفندق أو المنزل ، وحاولت (مديحة) إقناعها بمرافقتها ،

إلّا أنها رفضت رفضًا باتًّا ، متعلّلة بأنها تحتاج إلى منح نفسها فرصة التفكير فى بعض الأمور بمفردها ، فما كان من خالتها إلا أن وافقت على خروجها ، شريطة ألا تتأخر عن الثالثة عصرًا .

واستقلّت (سماح) سيارة الأجرة إلى ساحة مسجد (القيروان) ، وراحت تتلفّت حولها هناك بحثًا عن (حسين) ، ولكنها لم تجده ، وتنبهت إلى أنها قد حضرت مبكّرة عن الموعد بخمس دقائق ، وشعرت بخطئها لهذا ، وهى تتذكّر قول (مديحة) ، بأنه يتعيّن على الفتاة أن تصل متأخرة ، عن أوّل موعد يجمعها بشاب ، حتى تثير اهتمامه ، ولا تبدو أمامه متلهّفة عليه ، إلّا أنها لم تلبث أن شعرت بالخجل من هذا ، فهى لم تحضر إلى موعد غرامىّ مع (حسين) ، وإنما جاءت ؛ لأنه أراد التحدُّث معها ، ولأنه صديق قديم ، وحبيب سابق لابنة خالتها ، ولكن .. هل جاءت من أجل هذا فقط ؟..

راودها شعور مُزْدَوَج ، من الحَيْرة والاضطراب ، وبدا لها أنه من الخطإ أن تحضُر للقاء (حسين) ، وأن تخفِىَ الأمر عن خالتها و (مديحة) ، وتساءلت عمّا إذا كان من الأفضل أن تعود إلى الفندق ، وتخبرهما ، و ......

انتزعها من تردُّدها صوته ، وهو يقول :

— هل انتظرت طويلًا ؟

لحظتها نسيت كل شىء ، وخفق قلبها لرؤياه ..

* * *

٧ — إحساس حائر ..

طاف بها (حسين) أرجاء الساحة المحيطة بالجامع ، ودعاها إلى الدخول ، حيث رأت الفناء الذى يتوضأ فيه المصلُّون ، والثريّا الضخمة ، المتدلّية فى أرجائه ، وذلك السُّكون المَهيب المخيّم على المكان ، برغم كثرة المصلّين ، وشعرت (سماح) بارتياح نفسىّ يغمرها ، وهى تنقّل بصرها من جهة إلى أخرى ، وسألها (حسين) هامسًا :

— ما رأيك فى المكان ؟

أجابته فى صوت خاشع :

— إنه يشبه الجامع الأزهر عندنا ، وفيه يشعر المرء بالصفاء والرّاحة .

تنهّد وهو يقول :

— نعم .. هذا ما شعرت به فى أوّل مرّة جئت فيها إلى هنا ، ولهذا قصدت أن آتى بك إليه ، فلقد أتيت (تونس) حاملًا قلبًا محطّمًا بين ضلوعى ، وجراح نفسى ، التى سبّبتها لى (مديحة) أقوى من إرادتى على النجاح ، ووجدت فى هذا

المكان الرّاحة التى أفتقدها ، والبلسم الشافى لجروحى ، وغمرنى شعور عجيب لايمكننى وصفه ، دفعنى إلى عدم الاستسلام ، وشحذ من عزيمتى ، فكان البداية لكل ما حقّقتُه من نجاح فيما بَعْدُ .

كانت تستمع إليه فى صمت ، وقد غمرها شعور ، داخلىّ بالسعادة ، انعكس أثره على وجهها ، فأشرق بابتسامة عريضة ، ونظر إليها (حسين) ، قائلًا :

ــ لِمَ تبتسمين ؟

هزّت رأسها ، قائلة :

ــ لا شىء .

ولكنها كانت تدرك سرّ سعادتها وابتسامتها ..

لقد أسعدها أن يأتى بها ، فى أوّل لقاء لهما ، إلى مكان يحبُّه ويرتاح إليه ..

لقد أراد أن تشاركه شيئًا يحبُّه ، وكان هذا يكفيها ..

وسألها فجأة :

ــ ما رأيك فى تناول الخشاف ، على الطريقة التونسيّة ؟

هزّت رأسها موافقة فى صمت ، فجذبها من يدها ، ليجتازا معًا فناء الجامع إلى الساحة المحيطة به ، وركبا معًا سيّارته ، التى انطلق بها إلى أحد الميادين الجميلة ، التى تظلّلها

الأشجار الوارفة ، حيث غادرا السيّارة ، واتّجها نحو مقهى كبير فى أحد جوانب الميدان ، وأسرع إليهما صاحب المقهى ، الذى بدا من الواضح أنه يعرف (حسين) ، وهتف مرحبًا :

ــ أهلًا بالسيّد (حسين) .. أهلًا وسهلًا .

صافحه (حسين) ، قائلًا :

ــ أهلًا بك يا شيخ (صالح) .. نريد اثنين من خُشافك المثلّج .

نظر الشيخ (صالح) إلى (سماح) فى تخابث ، وهو يقول :

ــ كما تأمر .. سأعدّ وعاءً خاصًا من الخشاف ، من أجل عيون ست الحسن .

جلسا معًا حول إحدى الموائد ، و (حسين) يقول :

ــ إننى معتاد على المجىء إلى هنا من آن لآخر ، وعلى الرغم من أننى أمتلك فندقًا به أشهى المأكولات ، إلّا أنه لا شىء فى نظرى يعادل خُشاف الشيخ (صالح) .

سألته (سماح) فى فضول :

ــ تُرى كم ست حسن صحبتها إلى هنا ؟

ابتسم (حسين) وهو يقول :

ــ أتصدقيننى لو قلت إنك الوحيدة ؟

— ولكنك عرفت الكثيرات ولا شكّ .

— لقد أخبرتك من قبل أن لى عِدَّة صديقات ، وأننى لم أعش حياتى كراهب .

تملّكها شعور مُبهم بالغضب إزاء صراحته، فقالت فى حِدَّة:

— إننى لم أتوقَّع أن تعيش حياتك كراهب .

تطلَّع إليها فى دهشة لحِدَّتِها ، وتنبَّهت هى إلى ذلك ، وشعرت بالخجل ، إلّا أن هذا الخجل لم يمنعها من أن تسأله فى همس :

— ألم تشغل إحداهن مكانًا فى قلبك ؟

سرَت المرارة فى ابتسامته ، وهو يقول :

— لا أظن الحب سيجد طريقه إلى قلبى مرَّة أخرى .

العجيب أنها وجدت فى نفسها الخجول الجرأة لتسأله على نحو مباشر :

— أما زلت تحب (مديحة) ؟

أشاح بوجهه مغمغمًا :

— سأكون كاذبًا لو أخبرتك أننى أعرف إجابة صادقة على هذا السؤال .

ثم عاد يلتفت إليها ، وقد بدا أن السؤال قد أهاج مشاعره ، واستطرد :

— لقد رأيتكم عندما حضرتم إلى الفندق .

سألته فى دهشة :

— هل كنت موجودًا هناك ؟

— نعم .. وعندما وقع بصرى على (مديحة) شعرت باضطراب شديد ، أعجزنى عن التصرُّف ، وغمرنى إحساس بالخوف ، عجزت عن السيطرة عليه ، فطلبت من موظف الاستقبال أن يبلغكم أننى غير موجود ، وهربت إلى جناحى بالفندق ؛ لأختبئ كطفل صغير أراقب رحيلكم من بعيد ، ومن العجيب أنه فى هذه اللحظة بالذات ، شعرت برغبة قويَّة فى أن أهْرَعَ إليكم ، وأنادى (مديحة) ، ولكن شيئًا ما فى أعماق جعلنى أخشى هذا اللقاء ، وأركن إلى الفرار ، إلّا أنه حتى محاولتى للفرار لم تكن حاسمة ، فلقد جعلت موظف الاستقبال يخبركن أننى سأتغيب لثلاثة أيام فقط ، فى حين كان يمكننى أن أدفعه إلى ادِّعاء أننى سأتغيب شهرًا أو شهرين ، ضمانًا لعدم لقائى بكن أبدًا ، وهذا يَعْنِى أن عقلى الباطن يسعى إلى لقاء (مديحة) ، على الرغم من خشيتى لذلك ، وحتى لحظة مجيئكن إلى الفندق ، كنت أتصوَّر أننى قد تخلَّصت من حبِّى لـ(مديحة) ، وأنها لم تعُد بالنسبة إلىَّ أكثر من ذكرى أليمة ، ولكن اضطرابى ، وشعورى المتناقض بين الرغبة والخوف ، جعلنى أشك فى أننى قد طرحتها عن قلبى حقًّا .

تطلّعت (سماح) إلى وجهه بعينين ساهمتين ، وقد تغلغل فى نفسها شعور بالحزن والإحباط ، ثم لم تلبث أن قالت فى صوت أقرب إلى الهمس :

ــ يا لك من مسكين !

أثارته عبارتها ، فحدّق فى وجهها ، قائلًا :

ــ ماذا تَعْنِين بهذه العبارة ؟

خفضت بصرها ، قائلة :

ــ إنك ما زلت تحبها .

صمت لحظة ، قبل أن يهمس :

ــ أتظنّين ذلك ؟

أجابته فى صوت يحمل رنّة أسف :

ــ ما قلته لا يَعْنِى سوى ذلك .. إنك ما زلت تحبها ، على الرغم من كل شىء ، فأنت تخشى لقاءها ؛ لأنك تعلم أنك أضعف من أن تقاوم مشاعرك نحوها ، وترغب فى هذا اللقاء ؛ لأنك ــ فى عقلك الباطن ــ كنت تتمنّاه دومًا .

نكّس رأسه مستسلمًا لتحليلها ، وهو يغمغم :

ــ لو أن ما تقولينه صحيحًا ، فمن الأفضل أن تَرْحَلْنَ سريعًا عن (تونس) ؛ لأننى أرفض الاستسلام لهذه العاطفة مرّة أخرى ، فالحب غير المتكافئ ضَعْف ومذلّة .

غمرها فجأة إحساس دافق بالحنان نحوه ، فمسحت بيدها على شعره بطريقة عفوية ، وكأنها ــ وهى التى تصغره بثمانى سنوات ــ قد صارت أمًّا له ، وهى تغمغم :

ــ لابدَّ أنك قد تعذّبت كثيرًا .

رفع عينيه إليها ، متأثرًا بتلك اللمحة الحنون فى صوتها وأناملها ، ورفع يده فى آلية ، وأمسك يدها التى تمسح على شعره فى حنان ، وتلاقت نظراتهما ، و .....

وقطع الشيخ (صالح) تلك اللحظة العاطفية ، وهو يضع أطباق الخشاف أمامهما ، قائلًا بمَرَحِه المعهود :

ــ بالهناءة والشفاء .

وكما لو أن حضور الشيخ قد انتزعهما بغتة من هيامهما ، سحبت (سماح) يدها من يد (حسين) فى اضطراب ، على حين أعاد هو يده إلى جانبه ، وران عليهما الصمت لحظة ثقيلة ، قبل أن يقول هو فى صوت حاول أن يغلّفه بالمرَح :

ــ هيًّا .

سألته فى صوت متحشرج مضطرب :

ــ هيًّا ماذا ؟

اتسعت ابتسامته ، وهو يقول :

ــ هيَّا نتناول الخشاف .
وشاركته الابتسام ..

★ ★ ★

أوقف (حسين) سيارته أمام الفندق ، وهو يلتفت إليها ، قائلًا :
ــ هل سنلتقى مرَّة أخرى ؟
أجابته وهى تغالب نفسها :
ــ من الأفضل ألا نلتقى مرَّة أخرى ، إلَّا إذا وجدناك فى فندقك غدًا .
سألها فى اهتمام :
ــ هل ستأتين إلى الفندق مرَّة أخرى ؟
صمتت برهة ، وهى تتساءل للمرَّة الألف ، عما إذا كان ينبغى أن تذكر له الحقيقة ، ثم لم تلبث أن تراجعت ، قائلة :
ــ من المؤكَّد أن (مديحة) ستحضر لتحيتك غدًا ، فهو آخر الأيام الثلاثة ، التى حدَّدتها لغيابك المزعوم ، ولن أجد سببًا لإثنائها عن ذلك ؛ لذا فمن الأفضل ألا نتواجد ، حتى يمكننى إقناع خالتى و (مديحة) بالعودة دون مقابلتك ، إلَّا إذا .....
تردَّدت لحظات ، قبل أن تستطرد فى خُفُوت :

ــ إلَّا إذا كنت ترغب فى لقاء (مديحة) .
صمت برهة بدوْرِه ، ثم قال :
ــ لا .. أعتقد أنه من الأفضل ــ كما اتفقنا ــ ألَّا يتمَّ هذا اللقاء .
ثم أردف فى اهتمام :
ــ ولكن أليس من العجيب أن تُبدىَ (مديحة) ووالدتها كل هذا الاهتمام بلقائى ، برغم رفضهما الجارح لى مسبَقًا ؟.. لقد تصوَّرت أنهما سيتحاشيانني شيء مابقى من العمر ، فما سرُّ هذا التحوُّل المفاجئ ؟
أشفقت (سماح) أن تخبره بأن السرّ يكمـــنُ فى ذلك التحوُّل، الذى طرأ على أوضاعه الماليَّة، وزواج (مديحة) الفاشل، وتدهور المركز الماليّ للأم ..
أشفقت عليه من أن يعلم أنهما قد جاءتا لاستغلال عواطفه نحو (مديحة) فى إصلاح أمورهما ..
واكتفت بأن قالت :
ــ ربَّما أصبح الماضى فى طىّ النِّسيان بالنسبة لـ (مديحة) ، وربَّما هى تظن أنه كذلك بالنسبة لك أيضًا ، وهذا يَعْنِى أنهما يسعيان للقاء صديق قديم ، قد تفيدهما خبرته فى رحلتهما السياحية .

ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة حزينة ، وهو يقول فى مرارة :

ــ صديق قديم ؟!.. أهـذا كل ماتبقَّى لى فى قـلب (مديحة) ؟

فتحت (سماح) باب السيارة ، قائلة :

ــ سأنصرف الآن .

مدَّ لها يده مصافحًا ، وهو يقول :

ــ سأفتقدك كثيرًا .

انتابها شعور بالاكتئاب ، وهى تسحب يدها من يده ، قائلة :

ــ وأنا أيضًا ..

ــ هل ستراسليننى ، بعد عودتك إلى (مصر) ؟

ــ نعم .. بالتأكيد .

خشيت أن يهزمها حزنها وهى تودِّعه ، فافتعلت المرح ، وهى تقول :

ــ لقد كان الخشاف رائعًا .. أظننى سأفتقده أيضًا .

ثم شعرت بأنها تعجز عن رسم تلك الابتسامة الزائفة على شفتيها ، فأسرعت تعدو عائدة إلى الفندق ، دون أن تلتفت إليه ، على حين ظلَّ هو جالسًا فى مكانه ، وقد جثم شىء ثقيل على صدره ..

وعندما اجتازت بوَّابة الفندق ، توقَّفت تسأل نفسها فى حَيْرَة :

ــ هل أردت إبعاده عن لقاء (مديحة) ؛ لأن ضميرى يأبى أن يشاركها وأمها خطَّتهما لاستغلال عواطفه ؟.. أم لأنه لا يستحق ذلك ؟.. أم .. أم لأننى أشعر بالخوف والغَيْرَة من هذا اللقاء ؟!..

تُرَى هل يحقُّ لها أن تعترف بهذه الحقيقة ، ولو بينها وبين نفسها ؟..

حقيقة أنها قد أحبَّت (حسين) ..

نعم .. إن حبها له ليس وليد اليومين الماضيين ، بل هو يرقد فى قلبها منذ سنوات مضت ..

كان موجودًا ، وهى تأبى أن تعترف بوجوده لأسباب عديدة ، تحول بينها وبين الاعتراف ..

كان هناك ، وهى بعد فى السادسة عشرة من عمرها ، عندما كانت تراه كأحد فرسان القرون الوسطى ..

وشعرت بالذنب ، وهى تعترف لنفسها بهذا الأمر ، فصحيح أن (مديحة) أنانية وصولية مدلَّلة ، لاتعرف معنى الحب الحقيقى ، ولكنها ابنة خالتها ، وصديقة طفولتها ، وهى

تكنَ ــ ولا شكَّ ــ بعض الحب لـ (حسين) ، حتى ولو كان هذا الحب ضئيلًا ، أمام أطماعها وأهوائها ..

ولكن ما جدوى الاعتراف بحبها هى له ؟.. ولماذا يؤنبها ضميرها على هذا ؟.. لقد انتهى كل شىء ، وهى لن تراه حتى بعد الآن ..

وفى مِصْعد الفندق انهمرت دموعها ..

انهمَرت فى غَزارة ..

* * *



٨ ــ عيون حزينة ..

ألقت (سماح) نفسها فوق فراشها ، وأطلقت العِنان لدموعها الحبيسة ، دون أن تَفطَن إلى أن ابنة خالتها (مديحة) ليست فى الحجرة ، ولم تفْطَن إلى ذلك إلّا عندما دخلت (مديحة) من الباب ، فأسرعت تخفى دموعها ، وإن لم تنجح فى إخفاء حزنها وشَجَنها ، وهى تقول :

ــ (مديحة) .. أين كنت ؟

أجابتها (مديحة) بنبْرة جافَّة قاسية :

ــ بل أين كنتِ أنت ؟

سماح :

ــ لقد خرجت أُجَوِّل فى المدينة ، و .....

قاطعتها (مديحة) فى حِدَّة :

ــ دَعْكِ من هذه الأكاذيب المُصْطَنَعة .. لقد رأيتك وأنا أجلس فى بهو الفندق ، تغادرين تلك السيَّارة الفاخرة ودموعك تملأ عينيك ، حتى أنك لم تلحظى وجودى .. لقد كان ذلك الرجل الذى فى السيَّارة هو (حسين) .. أليس كذلك ؟

خفق قلب (سماح) ، وهى تقول :

ــ (مديحة) .. إننى .. إنه .....

ازداد انفعال (مديحة) ، وهى تقاطعها مرَّة أخرى فى عنف :

ــ ومتى قابلته ؟.. لقد كان ذلك أمس ، عندما تغيبت بالخارج .. أليس كذلك ؟.. لماذا أخفيت الأمر عنَّا ؟

أجابتها (سماح) وهى ترتجف انفعالًا :

ــ صدِّقينى .. لقد حدث ذلك مصادفة .. التقينا فى محل أزياء يملكه ، وخرجنا معًا .. وهو الذى طلب منِّى إخفاء أمر وجوده فى (تونس) عنك وعن خالتى .

هتفت (مديحة) :

ــ ولماذا يطلب منك ذلك ؟

أجابتها (سماح) فى حزن :

ــ لأنه ما زال يحبُّك .

قالت (مديحة) فى سخرية :

ــ يحبُّنى ؟.. أيفرّ من لقائى لأنه يحبُّنى ؟.. أى لُغز هذا ؟

هتفت (سماح) :

ــ نعم .. إنه يحبُّك ، ولكنه يرى أنك غير جديرة بهذا الحب ، ولا تستحقينه ، ويخشى إذا ما التقى بك أن ينكأ هذا جراحه ، ويضعف أمام حبه لك ، فتهون عليه كرامته مرَّة أخرى ، كما هانت يوم أتى إليك يتسوَّل لقاءك فى

(الإسكندرية) فى محاولة أخيرة لإنقاذ الحب الذى تنكَّرت له ، ومخاطبة المشاعر التى تحجَّرت فى قلبك ، فأبيت أن تلتقى به ، وتركته يرحل حاملًا حبًا مهزومًا .. لقد بذل الكثير من الجهد لينساك ، ويبدأ حياته من جديد ، وهو يخشى أن يضيع كل هذا الجهد سُدًى .

سألتها (مديحة) فى قلق :

ــ هل أخبرته عن الغرض من مجيئنا إلى هنا ؟

أجابتها (سماح) ، وعيناها تحملان نظرة ازدراء :

ــ ما كان يمكننى أن أخبره أننا قد جئنا إلى (تونس) ، لتعودى به زوْجًا ، بعد أن أصبح مليونيرًا ، وأن حبك له لا يزال أنانيًا وصوليًا ، لا مجال فيه للعواطف ، ولا هدف من ورائه سوى استثمار قلبه المسكين .

انفعلت (مديحة) قائلة :

ــ ألن تكفِّى عن ترديد تلك المثاليَات السخيفة ؟.. ما معنى هذا الحديث عن الوصولية واستثمار القلوب ؟.. إن (حسين) يحبُّنى ، ولن يمكنه أن ينتزع هذا الحب من قلبه ، حتى ولو فرَّ من لقائى .. أنا أيضًا لم أنكر أننى أحمل له بعض الحبَّ ، ولكننى أكثر واقعيَّة منك .. وأكثر فهمًا للحياة ، كما علمتنى إيَّاها أمى ، ولهذا رفضت (حسين) فى الماضى ،

وقبلته اليوم .. إن أى متحابَّين ينبغى أن يرتبطا بالزواج فى ظل حياة ماديَّة مُستقِرَّة ومستقبل مأمون ، فما الضرر من هذا ؟. ثم فى أى صفّ تقفين ؟.. فى صفّ خالتك وابنتها ، أم فى صفّ (حسين) ؟

ـــ إننى أشفق على هذا المسكين .

ـــ مِمَّاذا ؟

ـــ من أن يتعذَّب مرَّة أخرى على يديك .. إن شخصًا مثل (حسين) يحتاج إلى عاطفة حقيقية ، تتناسب مع أحاسيسه المرهفة ، فهو ما يزال يحمل قلبًا عطوفًا شفَّافًا ، حتى بعد أن أصبح مليونيرًا ورجل أعمال ، وفهمى الصحيح لك يجعلنى واثقة من أنه لن يجد لديك ما يحتاج إليه .

عقدت (مديحة) ساعديها أمام صدرها ، وهى تقول فى سخرية :

ـــ لم لا تعلنيها فى صراحة ؟.. قُولى إنك تغارين من مجرَّد التفكير فى زواجى منه .

انتفضت (سماح) ، قائلة :

ـــ ماذا تقولين ؟

ـــ ما سَمِعْتِهِ يا (سماح) .. كيف لم ألحظ ذلك من قبل ؟.. حديثك عنه ، إعجابك به .. دفاعك المستمرّ عن شخصه ،

وأخيرًا محاولة إخفاء وجوده فى (تونس) عنَّا ، والالتقاء به سرًّا ، ومن غير المستبعد أن تكون علاقتكما قد بدأت من قبل ذلك ، وأنك أنت تدبِّرين لفراره من لقائى .

ـــ أنت مجنونة ولا شك .

ـــ سأكون مجنونة حقًّا لو صدَّقتك ووثقت بك بعد ذلك .. كفاكِ تمثيلًا لدوْر الفتاة المثالية ، ذات المشاعر المرهَفة ..

وفجأة فُتِحَ الباب ، ودخلت منه (حكمت هانم) هاتفة :

ـــ لماذا أسمع صياحكما ؟.. هل تشاجرتما مرَّة أخرى ؟

ولكن (مديحة) لم تُوقف انفعالها الغاضب هذه المرَّة ، وهى تهتف :

ـــ تعالى لترى ابنة أختك الطيِّبة المسكينة ، التى ذهبِت للقاء (حسين) من خلف ظهرنا ، وأَوْعَزَت له بأننا جئنا لخداعه واستغلاله .

احتقن وجه (حكمت هانم) ، وارتسم على وجهها انطباع قاسٍ ، وهى تتحوَّل إلى (سماح) ، قائلة :

ـــ أهذا صحيح ؟

قالت (سماح) ، ودموعها تسيل على وجنتيها :

ـــ أُقسم لك يا خالتى إن هذا لم يحدث قطُّ .. لقد قابلت (حسين) مصادفةً ، ولم أخبره إلَّا بما طلبتما منى أن يعرفه .

ــ ولِمَ لَمْ تخبرينا بأنك قد التقيت به ؟

ــ هو طلب منّى ألّا أفعل ، ولقد وعدته ، فهو لا يريد الالتقاء بـ(مديحة) .

صرخت (مديحة) :

ــ أنت كاذبة .

هتفت (سماح) :

ــ بل أُقسم لك إنها الحقيقة ، وهو يستعدُ للسفر بالفعل إلى مكان بعيد ، حتى يتجنّب هذا اللقاء .

صاحت (مديحة) :

ــ لا رَيْبَ أنها فكرتك .

هتفت (حكمت هانم) فى حزم :

ــ اصمتا .. لا أريد أن أسمع صوتكما .

ثم التفتت إلى (سماح) ، مستطردة فى صرامة :

ــ اسمعى .. إيّاك أن تتصوَّرى أننى سأظلّ أؤدّى لك دَوْر الخالة العطوف إلى الأبد .. إننى أعرف منذ البداية أفكارك وآراءك ، بالنسبة إلى موضوع ارتباط (مديحة) بـ(حسين) ، ولكن ينبغى أن تعلمى أن ابنة خالتك قد أصبحت أرملة ، وهذا يَعْنى أن فرصتها فى الزواج من شخص مناسب قد انخفضت كثيرًا ، خاصّة وحالتنا المادّيّة متدهورة

إلى هذا الحدّ ؛ لذا فلم يعُد أمامنا سوى (حسين) ، ثم إنه هو و (مديحة) مرتبطان برباط حب سابق ، ولتعلمى أن هذه الزّيجة ستكون لصالح الجميع ، وأوّلهم أنت ؛ لأننى لم أعُد أحتمل نفقات إيوائك فى منزلى ، فى وضعنا المالىّ المُتدهْوِر هذا ، ولهذا فمن الأفضل أن تحتفظى بآرائك وأفكارك لنفسك ، وألا تتدخّلى فيما لا يعنيك ، ما دمت لا ترغبين فى معاونتنا .

غمغمت (سماح) فى انكسار ومذلّة :

ــ سأفعل ما تطلبانه منّى .

ــ حسنًا .. ستأتين معنا إلى فندق (حسين) غدًا ، ومن الأفضل أن يكون هنا ، وإلّا تأكّد لنا أنك قد خُنْتِ ثقتنا فيك بالفعل .

ــ ولكن .. لقد قال إنه ......

ولكن (حكمت هانم) قاطعتها فى حزم :

ــ كَفَى .. لقد قلتها كلمة قاطعة .. إما أن نجد (حسين) فى الفندق غدًا ، أو .....

صمتت لحظة ، ثم أضافت فى لهجة بالغة القسوة :

ــ أو تبحثى لنفسك عن مأوى آخر ..

* * *

٩ ـ لقاء مع الماضى ..

شعرت (سماح) مسبقًا بذلك الغضب ، الذى ستصبّه عليها خالتها ، وبالخوف من نظرات الشك والحقد ، التى ستمطرها بها (مديحة) ، عندما يكشفان عدم وجود (حسين) فى الفندق ، مما سيؤكّد صدق ما اتهماها به فى الليلة الماضية ، وراحت تترقّب وصول السيّارة التى تقلّهن إلى الفندق ، فى توتُّر واضطراب ، وعلى الرغم من ذلك ، كانت مرتاحة الضمير ، فهى لم تخُن ثقة خالتها و (مديحة) بها ، ولم تخبر (حسين) بالسبب الذى جاءا من أجله إلى (تونس) ، كما استطاعت إقناعه فى الوقت ذاته بألّا يخوض تجربة اللقاء مع (مديحة) ، حتى لا يسقط أسير المشاعر الزائفة ..

نعم .. لقد أراحت ضميرها بالتوفيق بين الأمرين ، أيًا ما كانت النتائج والعواقب ..

وتساءلت بينها وبين نفسها :

ـ أيمكن أن يكون ما قالته (مديحة) أمس صحيحًا ؟.. هل شعرت حقًّا بالغيرة منها ، مما دفعها إلى تأييد عدم حدوث اللقاء بينهما ؟

نفضت بسرعة ذلك الخاطر المزعج عن نفسها ، وهى تردِّد :

ـ لا .. ربّما أن مشاعرى نحو (حسين) قد تجاوزت حدود الإعجاب حقًّا ، وربما أن تلك الأحاسيس ، التى انتابتنى نحوه أمس ، أكثر من مجرَّد تعاطف مع صدق مشاعره .

ولكن أيًا ما كانت مشاعرها وأحاسيسها ، فهى لن تتحوَّل أبدًا إلى إنسانة أنانيَّة ، تلعب كل الأدوار لصالحها ، على حساب ابنة خالتها ، فلو أنها كانت واثقة من أن حب (مديحة) لـ(حسين) صادق ، وأنها لا تبغى استغلال عواطفه لمصالحها ، لكانت قد بذلت كل جهدها للجمع بينهما ، وإصلاح ما فسد حتمًا ، حتى ولو كان ذلك على حساب مشاعرها المُبْهمة نحوه ، ولكن المشكلة هى أنها تعرف حقيقة خُطَّة (حكمت هانم) وابنتها ، التى لا مجال فيها للعواطف ، ولا هدف لها سوى الاستفادة من ثراء (حسين) ، الذى تشعر بأنه لا يستحق ما يخطِّطانه له ..

أرخت رأسها فوق مسند مقعد السيارة ، وهى تحدّق إلى الطريق فى شرُود ، وراحت تردِّد فى أعماقها :

— فليكن ما يكون .. ربما عُدْنا غدًا إلى (مصر) ، وربما طردتنى خالتى من منزلها ، وتركتنى شريدة ، بلا مأوًى أو ملاذ أو معين ، وهى لن تتورَّع عن ذلك ، خاصَّة وأن (مديحة) لن تغفر لى حرمانها من صيدها أبدًا ، ولكننى لست نادمة .. الشىء الوحيد الذى سأندم عليه ، هو أننى لن أرى (حسين) بعدها .

تنهَّدت وهى تتذكَّره ، وأعادت إليها ذكراه بعض البهجة ، ونزعت الكثير من الحزن المطلّ من عينيها ..

لقد أخبرها (حسين) أنه يمكنها أن تراسله على عنوانه بالفندق ..

نعم .. إن علاقتها به لن تنقطع ، فهى تستطيع مراسلته ، وتعرُّف أخباره عن طريق المراسلة ..

ستلتقى به عَبْرَ كلمات الخطابات ، وسيبقى هناك ما يربطها به ، وفى هذا ما يُثلج صدرها ، ويخفِّف عنها أحزانها لفراقه ..

أفاقت من شرودها وأفكارها على صوت (مديحة) ، وهى تهمس فى أذنها بحدَّة :

— إننى أحدِّثك .. ألا تسمعيننى ؟

التفتت إليها قائلة :

— معذرةً .. كنت شاردة بعض الشىء .

قالت (مديحة) فى عصبيَّة واضحة :

— فِيمَ تفكِّرين ؟

ردَّت (سماح) قائلة :

— أأنا مدينة أيضًا بضرورة إعلان ما يجُول بخاطرى ؟

— كفَاكِ تحدُّثًا بهذه اللهجة السقيمة ، وأخبرينى بِمَ حدَّثك به (حسين) عنِّى .

— إنه يحمل لك فى أعماقه ذكرى مريرة .

قالت (مديحة) ، وقد اهتزَّت ثقتها بعض الشىء .

— ولكنه ما زال يحبُّنى .. أنا واثقة من ذلك .

قالت (سماح) فى هدوء :

— أتخشين أن يُفلت منك قلبه مرَّة أخرى ؟. أم أن ما يُقلقك هو ماله ؟

أجابتها (مديحة) فى تعالٍ :

— إن قلبه ما يزال ملكًا لى ، ولست بحاجة إلى البحث عنه .

قالت (سماح) بنفس الهدوء :

— الشىء الوحيد الذى يثبت ذلك هو مقابلته لك ، فلو أنه يحبُّك حقًّا ، فلن يغادر الفندق ، وهو يعلم أنك فى طريقك إليه .

عادت ثقة (مديحة) فى نفسها تهتز مرَّة أخرى ، وهى تسألها فى قلق :

ــ هل أخبرك حقًّا أنه سيغادر المكان ، حتى لا يقابلنى ؟

ــ نعم .. لقد كانت هذه رغبته .

ــ ولكننى أعرف (حسين) جيِّدًا .. لقد كان يحبنى فى شِدَّة ، وهذا النوع من العواطف لا يندثر فى سهولة ، إنه لم يكن يطيق التخلُّف عن موعده معى ، مهما كانت الأسباب .. إننى أذكر ذلك اليوم الذى جاء ليلتقى بى فى الكلية ، وحرارته تبلغ الأربعين درجة مئوية ، وعندما عاتبته على إهماله لصحته ، قال إنه لن يتخلَّف عن موعِدٍ معى ، حتى ولو كان يُحْتضَر .

وراحت تقول ، وكأنما تحاول إقناع نفسها :

ــ لا .. أنا واثقة من أنه سيكون موجودًا .. إنه ما زال يحُبُّنى ، وسينتظرنى .. وسيذوب كل ما بيننا عندما نلتقى .. سترين ذلك .

كانت (حكمت هانم) تجلس إلى جوار سائق السيَّارة ، فى المقعد الأمامىّ ، وقد ألقت رأسها على مسند المقعد ، متظاهرة بالنوم ، ولكنها لم تكن تستمع ــ فى الوقت ذاته ــ إلى ذلك الحوار الدائر بين ابنتها و (سماح) ، وإنما كان تظاهرها بالنوم لتتيح لنفسها فرصة التفكير فى كل المشاكل والأزمات التى تنتظرها ، لو لم تفلح فى إتمام زيجة ابنتها و (حسين) ..

لقد تراكمت عليها الديون بصورة لا تُحتمَل ، وحتى ذلك المنزل الذى تمتلكه أصبح مرهونًا ، بل إنها قد اقترضت تكاليف هذه الرحلة ، اعتمادًا على ما أكَّدته لها (مديحة) من ثقتها فى استعادة (حسين) ..

وعضَّت شفتيها فى ندم ، وهى تقول فى أعماقها :

ــ لقد كنت غبيَّة عندما رفضت زواجها من هذا الشاب ، وحرَّضتها على اقتلاعه من قلبها ، فلو لم أفعل ما احتجنا إلى بذل كل هذا الجهد لحل مشاكلنا .

ولكنها لم تلبث أن نفضت عن عقلها ذلك الشعور بالندم ، مستطردة :

ــ لا .. من المؤكَّد أننى ما كنت أستطيع قبوله وقتها ، فلم يكن ــ حينذاك ــ بالشخص المناسب لابنتى ، وما كنت لأتنبَّأ بكل ما وصل إليه ، وكل ما حقَّقه من ثراء فى سنوات قصيرة .. ولم أكن آنذاك مخطئة ، فالظروف المحيطة بأى شخص هى التى تجعل منه زوجًا مناسبًا أو لا ..

توقَّفت أفكارها ، مع توقُّف السيَّارة أمام الفندق ، فغادرتها مع الفتاتين ، وقالت لابنتها ، وهى تتجه معها إلى الفندق :

ــ سأنتظر مع (سماح) فى (الكافيتيريا) ، فمن الأفضل

أن تسأل عنه ، وتلتقى به بمفردك ، فسيكون هذا أفضل .

ترددت (مديحة) فى البداية ، ثم لم تلبث أن استعادت ثقتها بنفسها ، فاتجهت نحو موظف الاستقبال ، على حين ذهبت أمها و (سماح) إلى (الكافيتريا) ، وسألت هى الموظف فى حياء :

ــ هل عاد السيد (حسين) من رحلته بالخارج ؟

ابتسم موظف الاستقبال ، وهو يقول :

ــ آه !! أنت الآنسة التى جاءت للسؤال عنه من قبل .. أليس كذلك ؟

ضايقتها تلك المقدمة التى لا معنى لها ، فهى تريد إجابة سريعة ومحدودة ، تنتزع منها هذا التوتر ، ولقد بدا لها موظف الاستقبال بطيئًا ، وهو يقول :

ــ فى الواقع ، إن السيد (حسين) .....

قبل أن يكمل عبارته ، رقص قلبها طربًا ، على صوت يهتف :

ــ (مديحة) ؟!

التفتت تتطلع إلى (حسين) ، وملأت الفرحة قلبها ووجهها ..

لم تكن فرحتها العارمة لرؤيته ، وإنما لأن وجوده قد أعاد

إليها ثقتها فى أنوثتها وفتنتها ، وهى كونه أضعف من أن يقاوم حبه لها ..

وبأداء تمثيلى رائع لا يقاوم ، اندفعت تتناول يده بين يديها ، هاتفة :

ــ (حسين) !!.. لست أصدق نفسى !.. بعد كل هذه السنوات !!.. كم افتقدتك .

ولكن (حسين) بدا أكثر رصانة وتماسكًا ، وتحكمًا فى مشاعره ، وهو يقول :

ــ وأنا أيضًا .. لقد أخبرونى أنك قد حضرت للسؤال عنى من قبل .

رمقته بنظرة عتاب ودلال ، وهى تقول :

ــ هذا صحيح ، ولقد قيل لنا إنك قد غادرت (تونس) .

أجابها فى هدوء :

ــ نعم .. كانت لدىَّ بعض الأعمال فى الخارج .

زاد العتاب والدلال فى نظراتها ، وهى تقول :

ــ ليس هناك ما يدعوك إلى الكذب .. فأنا أعلم أنك لم تغادر (تونس) قط ، وأنها كانت محاولة منك لتجنب مقابلتى .

بدا الغضب فى ملامحه ، وهو يقول :

ــ من أخبرك بذلك ؟

أجابته فى دلال :

ـ لم يخبرنى أحد .. لقد رأيت (سماح) تغادر سيارتك أمام فندقنا .

انفرجت أساريره ، ودوَّت فى أعماقه صيحة :

ـ ما دامت (سماح) لم تَخُن ثقتك ، فلا يهم ما إذا كانت (مديحة) قد عرفت بوجودك أم لا ..

وقالت هى ، وكأنها تضع الجواب على لسانه ، خشية أن يصدمها جواب آخر :

ـ سأخبرك أنا لماذا خشيت مقابلتى .. لأنك ناقم علىَّ ، وتتصوَّر أننى قد غدرت بك ، وخُنت حبنا ، ولك كل الحق ، لو كان هذا شعورك نحوى .

حسين :

ـ ليس هناك ما يدعو لمثل هذا القول .

مديحة :

ـ بل لابدَّ أن تمنحنى فرصة شرح موقفى .

رمقها بنظرة تجمع ما بين السخرية والمرارة ، وهو يقول :

ـ أى موقف ؟.. موقفك عندما تخلَّيت عن حبِّنا ، وانصعت فى سلاسة لقرار أمك ، أم موقفك عندما جئتك فى (الإسكندرية) ، متوسِّلًا أن تمنحينى دقائق من وقتك ،

مناشدًا قلبك ألَّا يتخلَّى عن حبنا الكبير ، الذى تعاهدنا فيه على الإخلاص والوفاء ، فرفضت بكل غطرسة أن تلتقى بى ، وأرسلت مع ابنة خالتك ردًّا قصيرًا ، تنهى به كل شىء فى لحظة ، وتقولين فيه إنك ترفضين مجرَّد مقابلتى .

امتزج الغضب بالسخرية والمرارة فى صوته ، وهو يستطرد :

ـ إنك لاتدركين حجم الإحباط والمرارة والمهانة ، التى شعرت بها فى ذلك اليوم .

لم تجد (مديحة) أمامها سوى أن تلجأ إلى أشهر وأقوى أسلحة المرأة ، فترقرقت فى عينيها دموع زائفة ، وهى تقول :

ـ (حسين) .. إننى .....

ولكنه قاطعها دون أن يُبدىَ لمحة تأثر :

ـ لا تبريرات جديدة يا (مديحة) .. لقد كان التبرير أيَّامها واضحًا ، فلقد خسر (حسين) ، ابن الثرى المعروف ـ آنذاك ـ تلك التركة المُتخَمة ، وتلك الثروة والأموال والعقارات ، عشيَّة وفاة أبيه ، عندما تبيَّن له أنها تركة مثقلة بالديون ، ووجد نفسه فى ليلة وضحاها فقيرًا ، لا يملك سوى قدر من المال لا يُشبع الهانم وابنتها ، وهكذا لم يعُد (حسين) زوجًا مناسبًا للأميرة الصغيرة ، فوداعًا إذن لكل عهود الوفاء والإخلاص ، وليذهب الحب إلى الجحيم .

وأضاف فى سخرية :

ــ الحب الذى لم تعرفيه أبدًا .

بكت بدموع التماسيح ، وهى تقول :

ــ لا تظلمنى يا (حسين) ، إننى لم أحب يومًا سواك .

ــ هذا واضح .. بدليل أنك قد تزوَّجت بعد رحيلى إلى (تونس) بشهر واحد .

ــ كنت مرغمة على ذلك ، فلقد كانت أُمِّى مريضة ، وتعرَّضت لعدة أزمات قلبيَّة بعد وفاة أبى ، الذى بدَّد ثروته كلها فى مشروع فاشل قبل وفاته ، وأصبح الفقر يهدِّدنا بعد حياة البذخ والثراء ، ولو أن الأمر بيدى لتساوى الفقر والثراء ، مادمت سأحيا فى كَنَفِ رجل أحبه ، ولكن كيف أتخلَّى عن أُمِّى فى مثل هذه الظروف ، وأتركها للفقر والمرض ، وهى التى ذاقت طعم الرفاهية يومًا ؟. وهكذا التقت أسوأ ظروفنا .. كنت أنا أقف عقبة فى طريق طموحك ، وأرفض أن أحمِّلك عبء فتاة فقيرة وأم مريضة ؛ لذا فقد ضحَّيت بحبِّى لك فى سبيل أمِّى ، وفى سبيل أن أحقِّق لك ماتحتاج إليه من الحرية والانطلاق لتحقيق نجاحك .. هل عرفت الآن لماذا رفضتك أُمِّى ، ولماذا رفضت أنا مقابلتك فى (الإسكندرية) ؟.. لقد خشيت أن أضعف أمامك ، وأتخلَّى

عن قرارى وتضحيتى .. ولعلك تدرك الآن لماذا وافقت على الزواج من رجل ثرى .. وليتنى ما فعلت ، فلم أذُق من هذه الزِّيجة سوى البؤس والعذاب .

ــ وما الذى تغيَّر الآن ؟

ــ لا شىء .. لم آتِ هنا لأذرف الدمع أمامك ، بل جئت فقط لرؤيتك وتحيتك ، ولأطلب الصَّفح منك ، ثم أنصرف على الفَوْر ، و (سماح) وأُمِّى ينتظراننى فى (الكافيتيريا) ؛ لننصرف معًا ..

لم يدرِ لحظتها أيصدِّقها أم لا ، ولكنه قرَّر أن يستسلم مؤقَّتًا ..

يستسلم لها ..

* * *



١٠ ـ أسير الحب ..

جلست (سماح) مع خالتها ، حول إحدى موائد (كافيتريا) الفندق ، المطلّة على الحديقة ، وعيناها متعلقتان بمدخلها ، ولم تكد ترى (مديحة) مقبلة مع (حسين) ، حتى هبّت واقفة فى حركة لاشعورية ، وخفق قلبها فى قوّة ..

إنه لم يغادر الفندق إذن !..

لم يستطع مقاومة فكرة لقاء (مديحة) !..

ما يزال يحبها !..

ولم تدرِ .. أتشعر بالسعادة لرؤيته مرّة أخرى ؟ أم بالغَيْرة والتعاسة ؛ لأنها تأكّدت من كَوْنِه لا يزال محبًّا لـ (مديحة) ؟. أم بالشفقة عليه ؛ لأن (مديحة) لا تستحق هذا الحب ؟..

لقد تصوّرته أقوى من ذلك ، ولكن مشاعره التى هزمها ، طِيلة سنوات الفراق ، عادت تهزمه عند أوّل لقاء ..

واقترب (حسين) من المائدة ، وصافح (حكمت هانم) ، قائلًا :

ـ يسعدنى أن ألتقى بك فى فندق يا (حكمت هانم)

لم تكن الأم أقل براعة من ابنتها فى فنّ التمثيل ، فلقد رسمت على وجهها ابتسامة ودُودًا ، وهى تصافحه قائلة :

ـ لقد أسعدنى كثيرًا أن أعلم بوجودك فى (تونس) يا (حسين) ، وقرّرت ألّا ننهى رحلتنا قبل أن نلتقى بك ، خاصّة وأن هذه كانت رغبة (مديحة) .

قال (حسين) بأسلوب أقرب إلى الرسميّة :

ـ أشكركُنّ على أنكن لم تحرمننى هذه الزيارة ، خاصّة وأنها زيارتكم الأولى لـ (تونس) .

ثم صافح (سماح) ، وهو يتجنّب نظرة الحَيْرة فى عينيها ، قائلًا :

ـ أهلًا بك يا آنسة (سماح) .

ودعاهن إلى مائدة خاصّة ، تحتل موقعًا متميّزًا ، واختار لنفسه مقعدًا إلى جوار (مديحة) ، وهو يقول :

ـ هل تناولتن شيئًا ؟

أجابته (حكمت هانم) :

ـ عصير البرتقال ..

قال فى هدوء :

ــ سأدعوكنَّ إلى بعض مشروباتنا الخاصَّة إذن ، حتى يحين موعد الغداء .

ــ لا داعي .. لقد أتينا لتحيتك فحسب ، وسنتناول الغداء في فندقنا .

ــ هذا لا يصح ، أنتن ضيفاتي .. كم تبقَّى لكُنَّ في (تونس) ؟

ــ يومان فحسب .

ــ سأرسل من يُحضر حقائبكن إذن ، وسأخصِّص لكُنَّ جناحي الخاصّ ، لتقمن فيه خلال هذين اليومين .

تظاهرت (حكمت) بالاعتراض ، وهي تقول :

ــ لا يمكننا قبول ذلك .. إننا لم نتخذ الترتيبات لذلك .

أجابها في هدوء :

ــ كل شيء يمكن ترتيبه .. أرجوك يا (حكمت هانم) ، لا تحرميني من شرف إقامتكن بفندق ، خلال اليومين المتبقيين لَكُنَّ في (تونس) .

تظاهرت بالرُضوخ ، وهي تبذل أقصى جهدها لإخفاء فرحتها ، قائلة :

ــ لست أدري ماذا أقول ، ولكنك تحرجنا كثيرًا بهذه المعاملة ، خاصَّة وأن .....

قاطعها في هدوء :

ــ دَعينا ننسى الماضي .

ربَّتت على كفِّه في حنان مصطنع ، قائلة :

ــ المهم أن تنساه أنت ، وألا تكون ناقمًا عليَّ ، وأظن أن (مديحة) قد شرحت لك كل شيء ، و .....

عاد يقاطعها :

ــ لا بأس .. إنني أقدِّر ذلك .

التقت نظرات (مديحة) و (سماح) ، ورأت الأخيرة نظرات الظَّفَر والتَّشفِّي في عيني الأولى ، وكأنها تقول في صمت :

ــ أرأيت ؟.. إنه لم يقوَ على الفرار منِّي .. ألم أؤكِّد لك أنني ما زلت أحْكِم سيطرتي عليه ؟

لقد أصبح هذا الأمر بمثابة حرب بينها وبين (سماح) ، منذ رأتها تغادر سيَّارة (حسين) في الليلة الماضية ، على الرغم من أن (سماح) ــ حتى هذه اللحظة ــ لم تحاول ولم تفكِّرْ في الظفر بقلب (حسين) ، بل إن ذلك كان أبعد ما يكون عن خيالها ، برغم مشاعر الغَيْرَة التي تتسلَّل إلى قلبها أحيانًا ..

وعادت (حكمت هانم) تدير دفَّة الحديث ، قائلة :

ـ لقد بلغنى أن ظروفك المادِّيَّة قد تحسَّنت كثيرًا ، منذ استقررت هنا .

أجابها (حسين) فى هدوء :

ـ حمدًا لله ، لقد ساعدتنى الظروف ، واستطعت أن أحقِّق بعض النجاح هنا .

سألته (مديحة) فى شغف :

ـ أتصحبنى فى جولة لتفقُّد فندقك ؟

أجابها :

ـ بالطبع .. إنه ليس فندقًا ضخمًا كالفنادق الأخرى ، ولكننى أعدت تصميم ديكوراته على الطراز الشرقىّ والعربىّ ، وستروقك بعض اللمسات الفنيَّة فيه .

ـ إننى مَشُوقة لرؤيته من الداخل .

ـ حسنًا .. سأصحبك لمشاهدته هذا المساء ، وستأتى معنا (حكمت هانم) و (سماح) بالطبع .

قالت (حكمت هانم) فى خبث :

ـ لا .. إننى أفضِّل أن أستريح فى حجرتى .. يكفى أن تذهب (مديحة) معك .

تجاهل (حسين) تلميحها الواضح بالاكتفاء بصحبة (مديحة) ، وقال لـ (سماح) :

ـ ما رأيك أنت يا (سماح) ؟

حاولت أن تخفى مسْحة الحزن التى تغلِّف وجهها ، وهى تقول :

ـ لا .. من الأفضل أن أستريح فى حجرتى أيضًا .

قال معترضًا :

ـ ولكن ألا ترين أنه من الأفضل حقًّا أن ...... ؟

ـ أسرعت (مديحة) تقول :

ـ دَعْها على راحتها .

ثم أضافت فى دلال :

ـ ألا يكفيك وجودى معك ؟.

هبَّت (سماح) واقفة بغتة ، وهى تقول :

ـ أتسمحون لى بالتَّجوال فى الحديقة ، حتى تصل الحقائب ؟

نهض (حسين) بدوْره ، قائلًا :

ـ أتحبِّين أن أصحبك ؟

قالت وهى تحاول أن تبدو متماسكة :

ـ لا .. الأفضل أن أسير بمفردى .

قال فى إشفاق :

ـ كما تشائين ، ولكن لا تنسَىْ موعد الغداء .

وقالت لها خالتها فى حنان مصطنع :

ـ لا تبتعدى كثيرًا يا بنيَّتى ، حتى لا نقلق عليك .

غادرت (سماح) المكان ، و (حسين) يتابعها بنظراته ، حتى أمسكت (مديحة) بيده ، تدعوه إلى الجلوس ، وهى تقول فى دلال :

ـ (حسين) .. كم يسعدنى أن ألتقى بك مرَّة أخرى .

جلس وهو يبتسم ..

ولكن ابتسامته هذه المرَّة كانت باهتة ..

وحائرة ..

* * *



١١ ـ قلب لا يعرف الحبّ ..

تفقَّدت (مديحة) أقسام الفندق المختلفة ، فى صحبة (حسين) ، وهى تُبدى إعجابها الشديد بطريقة تصميمه ، وإن لم يمنعها ذلك من الإشارة إلى ما ينبغى إضافته إلى هذا الركن ، أو تغييره فى ذلك المكان ، وكأنها تعدّ نفسها للدوْر زوجة صاحب الفندق ، ولكن (حسين) ظلَّ صامتًا معظم الوقت ، مكتفيًا ببعض التعليقات المقتضبة ، حتى كانا يعبُران تلك الشُرفة المطلّة على حوض السباحة ، ورأت (مديحة) انعكاسات ضوء القمر على صفحة الماء ، وشعرت بنسمات الهواء الرقيقة المنعشة ، التى تجود بها الطبيعة ، فى مثل هذا الوقت من السنة ، فقرَّرت أن تستغل ذلك التأثير الرومانسىّ لتسعى إلى هدفها مباشرةً ، وتظاهرت بالتعثُّر ، ولم يكد (حسين) يلتقط يدها ، فى محاولة لمنع سقوطها ، حتى التصقت به ، وتركت شعرها الأسود الناعم يلامس وجهه ، واطمأنت إلى نجاح خُطّتها ، وإلى أنها قد أحدثت الأثر المطلوب ، عندما رأت وجه (حسين) يَضطَرِب ويَختَقِن فى وُضوح ، فأطلقت ضحكة قصيرة ، وهى تنظر إليه ، قائلة :

ــ ماذا طرأ عليك يا (حسين) ؟.. إنك لم تكن تضطرب إلى هذا الحدّ فى الماضى ، عندما أقترب منك .

قال وهو يحاول إخفاء الانفعال الواضح فى وجهه :

ــ ألا تَرَيْن أن الوقت قد حان لعودتك إلى حجرتك ؟.. لقد طالت جولتنا ، وأخشى أن تقلق (حكمت هانم) بشأنك .

قالت فى تبرُّم :

ــ ما زال الوقت مبكّرًا .. أترغب فى التخلُّص منّى ؟

قال متوتّرًا :

ــ على العكس .. لقد سعدت كثيرًا بالوقت الذى قضيناه معًا ، ولكننى لا أريد أن أسبِّب قلقًا لوالدتك ، ثم إنه لدىَّ بعض الأعمال ، التى يتعيَّن إنجازها .

قالت فى دلال ، وهى تسوِّى عقدة رباط عنقه :

ــ لن تقلق والدتى ، مادامت تعلم أننى معك ، والأعمال يمكنها أن تنتظر ، ثم ينبغى أن تتوقَّف عن معاملتى على هذا النحو الرسمىّ ، وأن تتحدَّث معى كما كنا نفعل فى الماضى ، أيّام الكلية .. هل نسيت تلك الأيام ؟.. أنسيت كيف كنت تتغزَّل فى جمالى ؟ .

ابتسم قائلًا :

ــ ما زلت تملكين وجهًا جميلًا نضرًا .

سألته فى لهفة :

ــ أما زلت تحمل بعض الحب لصاحبة هذا الوجه ؟

ــ مَن الأجدر بالحب فى نظرك .. وجه جميل ، أم نفس جميلة ؟

ــ ماذا تعْنِى ؟

ــ لقد أحببت فى الماضى (مديحة) الجميلة ، بما تصوَّرته فيها من عاطفة مخلصة ، وقلب وفىّ ، ونفس هادئة ، أمّا اليوم فلست أجد سوى جميلة الوجه فحسب ، والوجوه الجميلة تتغضَّن مع الزمن ، أمّا النفوس الجميلة فلا ينال منها الدهر أبدًا .

ــ إذن فأنت لم تصفح عنّى بَعْدُ .

ــ على العكس .. إننى لم أعُد أحمل لك شيئًا فى نفسى .. لقد كان من الغباء أن أترك نفسى تستسلم لمشاعر خوف وضعف لا معْنَى لها ، وأن أفرَّ من لقائك ، عندما شاهدتك لأوَّل مرَّة .. كان ينبغى أن نلتقى ، وأن نتحدَّث ؛ ليتطهَّر قلبى من أحقاد الماضى ، ولأنزع من نفسى ضعفها إزاء حبك الوهمىّ ، الذى عشت أتصوَّره جُرْحًا لا يندمل فى نفسى .

اختنقت عيناها بالدموع ، وهى تقول :

ـ لقد شرحت لك كل الظروف والدوافع التى .....

قاطعها فى هدوء :

ـ التى اضطرتك للتضحية بحبك من أجلى ، ومن أجل أمك المريضة .. أليس كذلك ؟. أتصوَّرت لحظة أننى سأصدِّق هذه الرواية ؟.. إن أمك لم تكن تعانى أيَّة أمراض ، عندما تقدَّمت لطلب يدك ، اللهم إلَّا مرض الطمع وحب المال ، مهما كان المقابل ، أمَّا عن الديون التى تراكمت بعد وفاة والدك ، فلم يكن لها وجود إلَّا فى مخيِّلتك أنت وأمك ، وحديثك عن التضحية زائف سخيف ؛ لأن مثلك لا يضحِّى من أجل الآخرين أبدًا ؛ لأنك ورثت الأنانية والجشع وحب الذات عن أمك ، ولم أدرك ذلك إلَّا مؤخَّرًا للأسف ..

احتقن وجهها ، وهى تقول :

ـ كيف تجرؤ على .....؟

ولكنه عاد يقاطعها :

ـ علىَّ أن أواجهك بالحقيقة ، التى لا مفرَّ من أن تواجهيها يومًا .. صحيح أنك تملكين وجهًا فاتنًا جميلًا ، ولكنك فى الوقت ذاته صاحبة نفس أنانية ، لم ولن تعرف الحب يومًا .

ومطَّ شفتيه ، وهو يردف :

ـ وإننى لأرثى لك فى الواقع .

اكتست ملامحها بالكراهية ، وهى تقول فى انفعال :

ـ أهى التى أخبرتك بذلك ؟

ـ مَنْ هِىَ ؟

ـ (سماح) .

ـ (سماح) ؟!.. وما شأنها ؟!

ـ تلك الحِرْباء .. إننى أعرف جيِّدًا ما تسعى إليه .. لقد تسلَّلت إليك ، فى مظهر البريئة المسكينة ، ذات المثاليَّات ، لتدفعك إلى الابتعاد عنِّى .. لقد رأيتك معها أمام الفندق فى تلك الليلة ، وأدركت وقتها أنها ستلعب دَوْرًا مُزْدَوَجًا لإبعادك عنِّى ، ونَيْلك لنفسها .

ـ أىّ هُراء هذا ؟

ـ تلك الجاحدة الحَقُود .. لقد أحسنَّا إليها ، وآويناها فى منزلنا ، واتخذتها أنا أختًا لى ، وشاركتها أدقَّ أسرارى ، ثم سعت لحرمانى منك ، والاستيلاء عليك لنفسها .. تلك الحيَّة الرَّقْطاء هى الأحق بكراهيتك .

وانطلقت تَعْدو نحوَ حجرتها ، وهو يهتف مناديًا إيَّاها ، ولكنها لم تتوقَّف ..

وتوقَّف هو ..

وفى عقله برز نداء قوىّ ..

نداء حُبّ ..

١٢ ـ حُبُّكِ فى قلبى ..

اقتحمت (مديحة) الحجرة ، على (سماح) وأمها ، وهى تواجه الأولى فى عصبيَّة :

ــ أهنئك .. لقد أدَّيتِ دَوْرَك الحقير بكل براعة .

اتَّسعت عينا (سماح) فى ذُهول ، وهتفت خالتها فى دهشة :

ــ ماذا تقولين يا (مديحة) ؟.. هل جُننتِ ؟

تحوَّلت إليها (مديحة) ، صائحة بنفس عصبيَّتها :

ــ لقد كنت مجنونة حقًّا ، عندما وثقت بهذه الحيَّة الرَّقطاء .

شاركتها أمها عصبيَّتها ، وهى تهتف :

ــ ماذا حدث بالله عليك ؟

كان (حسين) قد بلغ الجناح فى هذه اللحظة ، وهمَّ بطرق بابه ، عندما تناهى إليه من الداخل صوت (مديحة) ، وهى تقول فى غضب :

ــ لقد كانت تلعب منذ البداية دَوْرًا مُزْدَوجًا ، وأنت المخطئة عندما طلبت منها أن تصحبنا فى هذه الرحلة ، فلقد تظاهرت بمسايرتنا ، فى حين كانت تخطِّط لنفسها لتنال هى (حسين) .. استغلَّت براعتها فى تمثيل دَوْر الفتاة المسكينة ، ذات القيم والمبادئ ؛ لتكسب عطفه ، وتدفعه إلى كراهيتى ، وأبلغته أننى أسعى وراء ملايينه ، ومَنْ يَدرِى ماذا أخبرته أيضًا ؟

ثم التفتت إلى (سماح) هاتفة :

ــ ماذا كنت تبغين من وراء هذا ؟.. أتصوَّرت أنه من الممكن أن يحبك (حسين) ويتزوَّجك فى النهاية .. إنك واهمة يا صغيرتى ، فـ(حسين) لن ينظر إليك بعد أن أصبح مليونيرًا ، وحتى فى أيام فقره ، لم يكن ليفكِّر فى فتاة وضيعة مثلك .. إن لُعبتك لن تُحْرِز النجاح الذى تصوَّرته ، عدا نجاحك فى إشباع حِقْدك وكراهيتك تجاه مَنْ أحسنوا إليك ، وشملوك بعطفهم .

تحوَّلت (حكمت هانم) إلى (سماح) ، قائلة فى غضب :

ــ أهذا صحيح ؟

ولكن (سماح) وجَّهت حديثها إلى (مديحة) ، قائلة :

ـــ برغم جهلى بسبب كل هذه الإهانات ، إلَّا أننى لست أحتاج إلى القَسَم بأننى لم أَخُنْ ثقتك بى .. أعترف أننى حاولت إبعاد (حسين) عنك منذ البداية ، ولكن دون أن أخبره بأى شىء ، وذلك حماية له من أطماعك ، التى لا تقف عند حدّ ، وإخلاصًا لمبادئ أومن بها ، وعلى الرغم من ذلك فلم أخبره أنك وأمك قد جئتما إلى (تونس) سعيًا وراء ماله ، واستغلالًا لعواطفه ، وذلك أيضًا إخلاصًا لقيم أومن بها ، وهى أنه لا ينبغى للمرء أن يخون ثقة الآخرين به ، خاصّة لو أنهم أقرب الناس إليه ، وأنت تعرفين جيّدًا أننى لا ألعب دوْرًا مُزْدَوَجًا ، فلم أكن راضيةً عن خُطَّتكما هذه ، ولقد أعلنت رفضى لها منذ البداية ، ورفضى لمحاولتكما تعزيز مركزكما المالىّ وإنقاذه على حساب التغرير بمشاعر صادقة مخلصة ، ولكننى اضطُرِرْت للسفر معكما ، بعد إصرار خالتى ، لأقوم بدوْر السكرتيرة الخاصّة ، والخادمة المطيعة لكما ، استكمالًا لمظهر اجتماعىّ زائف ، تتشبَّثان به .. كما أننى لم ولن أفكّر فى الاقتران بـ (حسين) ، ولست ممن يلجأن إلى تلك الأساليب الوضيعة ، للظَّفَر بقلوب الآخرين ..

أمسكت (مديحة) بكتفيها ، وراحت تهزّها فى عنف ، قائلة :

ـــ كفاكِ تمثيلًا وادِّعاءً .. أتعتقدين أننى صدَّقتك ، عندما قلت إنك قد التقيت به مصادفة ؟.. لقد كان كل شىء من تدبيرك أنت ، ولكنك انكشفت فى النهاية ، ولم يعُد دَوْر (سندريلا) يصلح لك ..

وهنا اقتحم (حسين) الحجرة ، وهو يقول فى غضب :

ـــ كفاكِ ظلمًا لها .. إنها لم تخبرنى بشىء ، على الرغم من أنه كان ينبغى لها أن تفعل .

ورمق (سماح) بنظرة خاصّة ، وهو يضيف :

ـــ فالثقة لا تُمنح للمتآمرين .

قالت (مديحة) فى انفعال :

ـــ لا تحاول الدفاع عنها .

قال فى حزم :

ـــ لست أدافع عن أحد ، فتلك هى الحقيقة ، ومن مزايا الثراء أنه يتيح للمرء الوصول إلى الحقيقة بأسرع من الآخرين .. لقد أجريت اتصالًا هاتفيًا مباشرًا بطبيبكم الخاصّ فى (القاهرة) ، والذى تربطنى به صلة قديمة ، وأكَّد لى أن (حكمت هانم) لا تشكو من أيّة أمراض ، كما أكَّد لى بعض

الأصدقاء فى (مصر) أن الديون لم تعرف طريقها إليكما إلَّا بعد وفاة زوجك السابق (عبد القادر بك) ، الثرى المعروف ، الذى كان أكثر فهمًا لكما منّى ، وأكثر إدراكًا لحبّكما للمال ، فتنازل عن كل ثروته لزوجته الأخرى ، وأولاده منها ، فتركك‍ما فى مِحْنة ماليَّة حقيقية ، بسبب بَذَخكُما الشديد ، ولم يكن أمامكما سوى تقليب الدفاتر القديمة ، والعثور على اسم محبّ مسكين طردتماه من حياتكما يومًا بلا رحمة ، لمجرَّد أنه لم يعُد ثريًا .. ولكنه أصبح الآن كذلك ، وأنت تثقين فى تأثيرك على قلبه وعواطفه ؛ لذا فقد وجدتما فيه الحلّ الأمثل لمشاكلك ومشاكل أمك .. ولذا كانت رحلتكما إلى (تونس) .

انهارت (مديحة) ، وتفجَّرت الدموع من عينيها ، وهى تقول فى مرارة :

ـ ولكننى أحبك .. أُقسم على ذلك .

قال فى حزم :

ـ ربما ، ولكنك تحبين نفسك أكثر من أى شخص آخر ، ثم إننى لم أعُد أحبك .

بكت فى حرارة ، وهو يلتفت إلى الأم ، قائلًا :

ـ لن يتغيَّر فى الأمر شىء ، ستقضون اليومين الباقيين هنا ، وسيبقى فندق بكل العاملين فيه فى خدمتكن ، ولقد أجريت اتصالاتى بالقاهرة ؛ لتسوية أمر الديون .

قالت (حكمت هانم) فى مرارة ، محاولةً الحفاظ على ما تبقَّى من كبريائها :

ـ إننى غير مستعدة لأن تسدِّد أنت ديوننا .

أجابها فى هدوء :

ـ إننى لم أفعل ، ولكننى حوَّلت الدَّيْن لصالحى ، ويمكنك سداده وقتما تشائين .

لم تستمر (حكمت) فى اعتراضها ، فقد بدا لها هذا حلًّا مناسبًا لمشكلتها ، فى الوقت الحالىّ ، وضمَّت ابنتها إلى صدورها ، وتعالَى نحيبها ، وهى تقول بنفس النَّبرة المتعالية ، التى بدا وكأنها قد أصبحت جزءًا منها :

ـ سنسافر إلى (القاهرة) غدًا .. لم يعُد هناك ما يدعونا للبقاء .

صمت (حسين) لحظة ، ثم قال :

ـ فليكن .. سأتصل بشركة الطيران ، وأحجز تذاكركن لرحلة الغد .

قالت (سماح) فى خفوت :

— أريد أن أعود إلى (القاهرة) الليلة .

قال (حسين) فى حزم :

— هذا مستحيل .. لا توجد طائرات متجهة إلى (القاهرة) الليلة .

قالت فى توتُّر :

— إذن فسأقضى ليلتى بالمطار .

قال وهو يتطلَّع إلى (حكمت هانم) و (مديحة) :

— إننى أُقدِّر دوافعك ، ولكننى أستطيع أن أوفِّر لك حجرة أخرى ، حتى يحين موعد السفر .

ولكنها أسرعت تلتقط حقيبتها ، وتضع فيها ثيابها ، قائلة :

— لا .. أرجوك أن توفِّر لى سيارة تقلُّنى إلى المطار فحسب ، و .....

قاطعها فى صرامة :

— لا .. حتى ولو اضطُرِرْت لحبسك هنا .

تخلَّت (حكمت) عن لهجتها المتعالية ، وهى تقول :

— ستقضين الليلة معنا يا (سماح) ، وسنسافر نحن كلنا غدًا ، فأنت لم تخطئ فى شىء ، ولا حتى (مديحة) .. المخطئة الحقيقية هى أنا .

وأطلقت زفرة قويَّة من أعماقها ، قبل أن تستطرد :

— نعم .. أنا المخطئة منذ البداية .

وأحاطت كتف (سماح) بذراعها ، وضمَّتها إلى صدرها مع ابنتها ، وربَّتت على رأسها فى حنان ، وهى تتابع :

— ثم إنك فى النهاية ابنة أختى .. أى ابنتى ..

تطلَّع إليهنَّ (حسين) فى تأثُّر ، ثم غادر الحجرة فى هدوء ، وأغلق بابها خلفه ..

ومعه أغلق بابًا آخر ..

باب حبِّه لـ (مديحة) ..

* * *

استعدَّت الأُسرة لمغادرة الفندق فى اليوم التالى ، وقد حَرِصْن جميعًا على الانصراف فى هدوء ، دون مقابلة (حسين) ، ولكنه كان ينتظرهن فى رَدْهة الفندق ، حيث لم يغمض له جفن ، وهو يستغرق فى التفكير ، طِيلة الليلة الماضية ، حتى وصل إلى قراره الحاسم مع الصباح ، ولقد استقبلهنَّ وهُنَّ يغادرن المِصْعَد ، قائلًا :

— أما من تراجع عن السفر اليوم ؟

قالت (حكمت) فى تواضع عجيب :

— بلى .. ونشكر لك حُسن ضيافتك .

قال فى خُفُوت :

ــ ستقلكُنَّ سيارتى إلى المطار إذن ، وستكون معدّة بعد بضع دقائق ، فهل تسمحين لى يا (حكمت هانم) بالتحدُّث إلى (سماح) على انفراد ، خلال هذه الدقائق ؟

تطلَّعت إلى ابنة اختها ، ثم جذبت ابنتها من ذراعها لتبتعدا معًا ، وهى تقول :

ــ تفضَّل .

اصطحب (حسين) (سماح) إلى أحد أركان الفندق ، وجلسا معًا حول مائدة وُضِعَتْ فوقها لفافتان كبيرتان ، وقال فى صوت هامس .

ــ (سماح) .. لقد قضيت ليلتى الماضية كلها أفكِّر فيكِ ، فلست أطيق فكرة الابتعاد عنكِ ، بعد أن وجدت فيكِ ما أصبو إليه من حبٍّ حقيقى ، وعاطفة صادقة .. إنك أقرب إلى نفسى ، و .....

وضعت يدها على فمه ، لتمنعه من الاسترسال فى الحديث ، وهى تقول :

ــ أرجوك .. دَعْنى أرحل ، ولا تزد الأمر تعقيدًا وصعوبة .

ابتسم قائلًا :

ــ حسنًا .. لن أتكلَّم ، ولكن ما رأيك فى قبول هديَّتى .

قال هذا وهو يفتح إحدى اللفافتين ، ويتناول منها ذلك الثوب المصنوع من الدانتيلَّا الزَّرقاء ، والذى بهر (سماح) فى محل الأزياء ، ولكنها قالت فى هدوء :

ــ أشكرك ، ولكن لا يمكننى أن أقبله .

ــ لماذا ؟.. لقد قلت من قبل إنه ما من فتاة لا ترغب فى اقتناء ثوب مثله .

ــ وقلت أيضًا إنه لا يناسب فتاة مثلى .

فضَّ اللفافة الأخرى ، وأخرج منها ثوب زفاف ، وهو يقول :

ــ ولكن هذا يناسبك تمامًا ، خاصَّة إذا ما كنت سترتدينه من أجلى .

ملأت الفرحة وجهها لحظة ، ثم لم تلبث أن غابت عنه ، وهى تُغْمِض عينيها ، وتهزّ رأسها قائلة :

ــ لا .. لا .. مستحيل أن أوافق على هذا .

وهبَّت واقفة ، محاولة الابتعاد ، ولكنه أمسك معصمها ، قائلًا :

ــ لماذا يا (سماح) ؟.. إننى أشعر أنك تبادليننى نفس الشعور .

قالت ، وهى تحبس دموعها فى مُقْلتيها :

ــ وما شعورك ؟

أجابها فى دهشة :

ــ ألا يكفى أن أعرض عليك ثوب الزفاف ، لتعلمى أننى أحبك ؟

قالت فى ألم :

ــ لا .. إنك لا تحبُنى .. إنك تريد الانتقام من (مديحة) فحسب .. تريد أن تردَّ لها الصَّاع صاعين ، عندما تراك وقد فضَّلتنى عنها ، بعد ما ارتكبته فى حقك ، وأنا الفتاة المسكينة ، التى احتقرتْها هى دوْمًا .

هبَّ واقفًا ، وهو يقول فى غضب :

ــ ما هذا الهُرَاء ؟.. الزواج ليس لُعبة انتقام مسلِّية ، إنه مستقبل وأطفال ، وحياة جديدة ، ومنزل يمتلئ بالحب والإخلاص والتفانى ، ولقد اخترتك لكل هذا ، فأنتِ وحدكِ يمكنك منحى هذا ، وما كان لى أن أعبث بأمر مقدَّس كهذا .. إن الانتقام لا يؤذى سوى صاحبه ، ولقد نزعت من نفسى كل ما يتعلَّق بـ(مديحة) ، ولم يعُد هناك من يشغل قلبى وتفكيرى سواك .

خفق قلبها فى شدة ، وراح كيانها كله يرتجف ، وقد رأت الصِّدْق واضحًا فى عينيه ، حتى أنها هى نفسها لم تصدِّق ، فغمغمت فى تلعثم :

ــ (حسين) .. إننى .....

قاطعها فى حزم :

ــ إنك تبادليننى الحبَّ .. أليس كذلك ؟

أطلَّ حبها من عينيها ، وهى تتطلَّع إليه ، وتقول فى استسلام :

ــ بلى .. ولم يبدأ هذا الحب عند لقائنا فى (تونس) ، بل هو داخلى منذ سنوات ، دون أن أدرك حقيقته ، ولكن المشكلة هى أننى أشعر بالإثم بسببه .

سألها فى دهشة :

ــ الإثم ؟!.. وما الذى يدعُوك لمثل هذا الشعور ؟

فجأة برزت (حكمت) من خلف شجرة الزِّينة المجاورة للمائدة ، وهى تقول :

ــ سأخبرك أنا ما الذى يدعُوها إلى هذا .. ومعذرةً ، فلم أقصد التصنُّت إلى حديثكما ، ولكننى جئت أتعجَّل (سماح) ، بعد أن أخبرنى السائق بضرورة الانطلاق الآن للَّحاق بموعد الطائرة ، ولكن من حسن الحظ أن حدث هذا ،

فـ (سماح) تخشى أن تجرح مشاعر (مديحة) ، لو وافقت على الزواج منك ، وأن تبدو لنا ناكرة للجميل ، أو تؤكّد بقبولها ما رمتها به (مديحة) من أنها كانت تسعى للإيقاع بك ، ولكننى أؤكّد لك ولها أن زواجكما سيسعدنى جدًا ، فلو أن القدر لم يوفّق بينك وبين ابنتى ، فسيسعدنى زواجك من ابنتى الأخرى .

ألقت (سماح) نفسها بين ذراعى خالتها ، وهى تبكى هاتفة :

ـــ خالتى الحبيبة .. لم أرَكِ أبدًا بمثل هذا الحنان .

ضمتها خالتها إلى صدرها ، وهى تقول مداعبة :

ـــ ما الذى تقصدينه أيّتها الشقيّة .. إننى لم أكن بمثل هذا السوء أيضًا .

ثم أضافت فى حنان :

ـــ إنك لم تخونى ثقتنا فيك يا (سماح) ، بل كنت دوْمًا نعم الابنة ، فلا تعاندى نداء قلبك من أجل أوهام .. صحيح أننى متقدمة عنك فى السن ، ولكننى أدركت مؤخرًا أن الحقيقة ، التى ينبغى أن يحرص عليها المرء ، أكثر من أى شىء آخر فى الدنيا ، هى الحب .. الحب المخلص الحقيقىّ ، الذى لا تشوبه أيّة أطماع ماليّة .. تزوّجى واسعدى يا بنيّتى ، فكلاكما يناسب الآخر .

وتناولت ثوب الزفاف من المائدة ، وناولتها إيّاه ، وهى تقبّل جبينها ، مستطردة :

ـــ وهذا يناسبك أيضًا .. أتمنّى لكما حياة سعيدة .

سألتها (سماح) ، وهى تمسح دموعها :

ـــ وماذا عن (مديحة) ؟

تنهّدت (حكمت) فى حزن ، وهى تقول :

ـــ ربما كان درس الأمس بداية حقيقية لعلاج نفسها وأنانيتها ، وعلاج نفسى أيضًا ، وسيحتاج هذا إلى بعض الوقت حتمًا ، حتى تنظر كلتانا إلى الأمور نظرة مختلفة ، عن تلك التى عشنا ننظر بها طِيلة عمرنا .

ثم صافحت (حسين) ، مستطردة :

ـــ بارك الله فيك وفى عروسك .. حاول أن تحافظ عليها جيّدًا .

سألها فى تأثّر :

ـــ ألا تبقين لحضور حفل الزفاف ؟

هزّت رأسها ، قائلة :

ـــ سيكون ذلك صعبًا مع وجود (مديحة) ، ولكن قلبى سيكون معكما .

وعادت تحتضن (سماح) ، وتقبّلها قائلة :

ـ طمئنينى عليك دوْمًا ، واحرصى على زوج المستقبل ، فهو يكنَ لك حبًا حقيقيًا .

ومسحت دموعها بأناملها ، وأسرعت تبتعد ، وهى تلوِّح لهما ، فقالت (سماح) فى تأثُّر ، وهى تتابعها بعينيها :

ـ أتعلم أنها أوَّل مرَّة أراها فيها تبكى ؟

أحاط كتفها بذراعه ، وهو يقول فى حنان :

ـ لكل شىء بداية .

ثم أضاف فى حبّ :

ـ ما رأيك فى أن نبدأ إعداد متطلَّبات الزفاف ؟

ضمَّت ثوب الزفاف إلى صدرها ، واستكانت لذراعه التى تحيطها بالثقة والحب والأمان ، واتجها معًا لإعداد حفلهما ..

وبدء رحلة حبّهما ..

* * *

[تمت بحمد الله]

زهور

سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

المؤلف



أ. شريف شوق

السلسلة الوحيدة التي لا يجد الأب
أو الأم حرجًا من وجودها بالمنزل

وداعًا للماضي

بين جراح الماضي، وبسمة
الحاضر، تتفتح آمال المستقبل..
لقد أخفى (حسين) بين ضلوعه
قلبًا جريحًا، أراد البعض أن ينكأ
جراحه من جديد.. وأرادت (مديحة) أن
تضمَّ الماضي والحاضر والمستقبل معًا..
راحت (سماح) تتأرجح بين
واجبها ومشاعرها.. فماذا
ادَّخر القدر للجميع ؟..



الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي في سائر الدول العربية والعالم